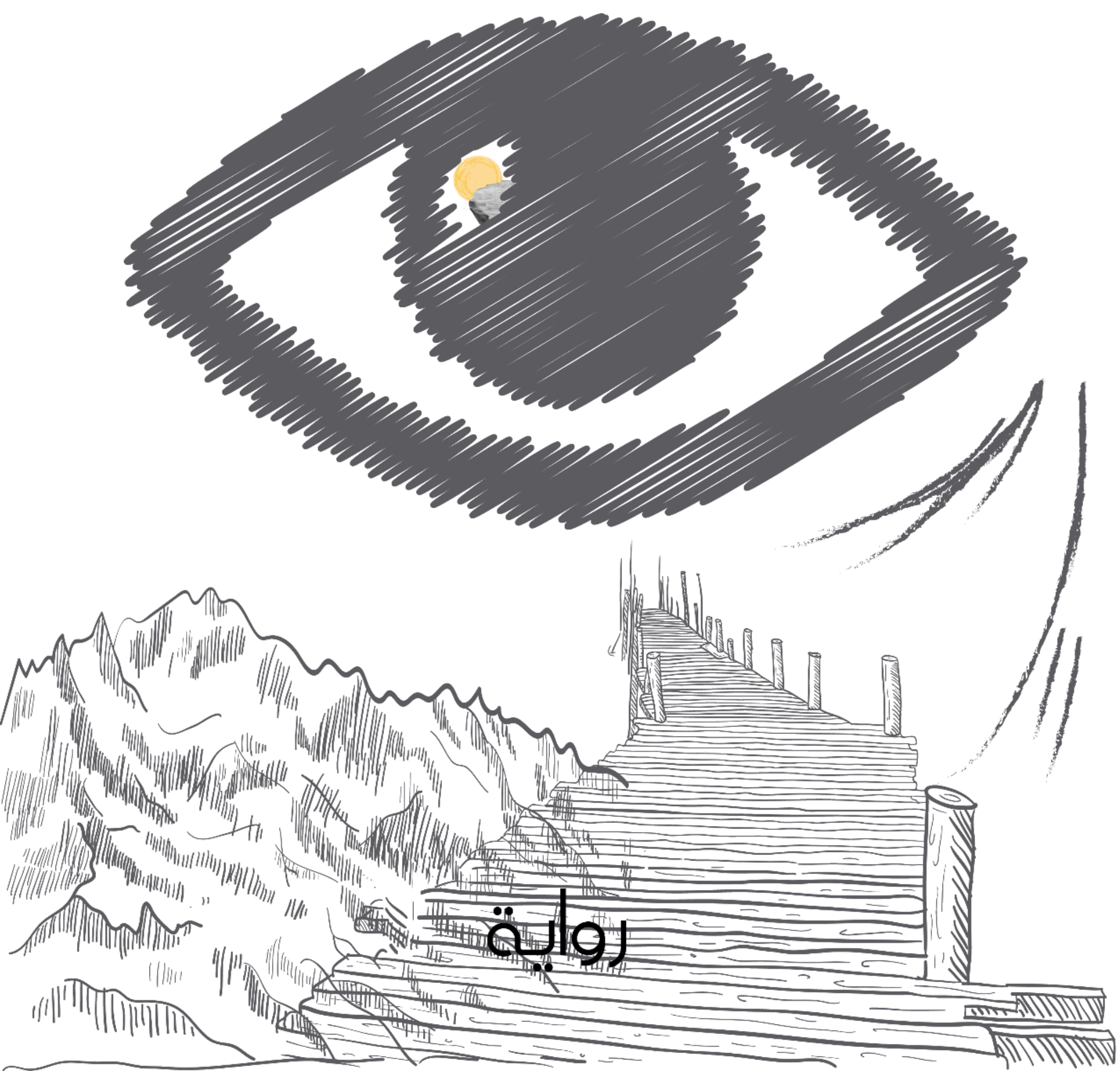
سمير نبوكي أبو زيد

الجزء الثاني

# عز الدين



تدقيق لغوي: كريم حسن علي
تصميم الغلاف: عبد الرحمن طُرية

# إهداء

إهداء إلى أولئك الذين لم يستسلموا. إلى أولئك الذين لا يزال في قلوبهم أمل. إلى أولئك الذين لا يزالون مقتنعين بإمكانية التغير. إلى أولئك الذين لا يزالون يقفون في صف المستضعفين مهما لحقهم من الأذى. إهداء إلى كل الباحثين عن الحق والمحاربين من أجل الحق، الذين يريدون أن يعرفوا أكثر ويتعلموا أكثر حتى يقتربوا من الحق أكثر. إلى أولئك الذين لا يتبعون القطيع، إهداء إلى الذين لم يبيعوا عقولهم في أسواق الخوف والجهل والقهر. إهداء لكم أنتم...

## شكر

بعد شكر الله، أشكر والدي ووالدتي فما من شيء أقوم به إلا ولهم الفضل الأعظم فيه.

أشكر إخوتي أحمد وإيمان ورحمة لدعمهم وتشجيعهم.

أشكر زميلتي لاميس عبد الحافظ فلولا آرائها واقتراحاتها ما كانت أبدا الرواية ستخرج بالصورة التي هي عليها الآن.

أشكر زميلتي سارّة محمد يوسف على مراجعتها الرواية وعلى ملاحظاتها السديدة واقتراحاتها المفيدة.

أشكر أصدقائي عبد الرحمن طُرية وكريم حسن ومحمد الدقدوقي وأحمد عبد المولى، لمساعدتهم وتشجيعهم.

وأخيرًا، أشكر رفيقة روحي، الفتاة التي أخرجتني، بين عشية وضحاها، من دركات الحزن إلى درجات الفرح، بسنت.

# بداية

مجموعة من العمال يقفون أمام أحد أبراج الضغط العالي، في مكان بدا كأنه محطة كهرباء قيد الإنشاء. الأرض ترابية، والمباني المتناثرة مبنية من الطوب الحراري ذي اللون الوردي المميز. وتتوزع مجموعة من أبراج الضغط العالي في فضاء مكان محاط بسور مرتفع من نفس نوع الطوب. من أحد المباني خرج شابَّان يرتدي كلٌّ منهما بدلة زرقاء، عليها خطان أصفران عند الكتف وفوق الركبة، ويضعان على رأسيهما خوذة صفراء. كان على وجهيهما علامة الإرهاق ويمشيان ببطء، بينما هما مندمجان في حديث جدِّي. كان أحدهما يمسك بلوحة كبيرة، يتوقف عن المشي ويفتحها ليطلع زميله على بعض المخططات فيها، ثم يطويها مرة أخرى، ويعاودان المسير. مشيا حتى وصلا برج الضغط العالي الذي يتجمع حوله العمال المنهمكين في العمل .

قال أحدهم وكان شابًا متوسط القامة أسمر البشرة ذا عينين زيتيتين، له شارب كثيف يحيط بشفتيه ويلتف حولهما حتى يتلاقى طرفيه عند ذقنِه. قال بلهجة صعيدية: تسلم إيديكم يا رجالة .

تكلم الشاب الآخر، وكان قمحي البشرة، متوسط القامة، ذا لحية طويلة، قائلًا: لقد أنجزتم هذا الأسبوع عملًا جيدًا والحمد لله، سأطلب مكافئة لكم إن شاء الله، هيا أنهو ما في أيديكم، لكي تعودوا إلى بيوتكم قبل حلول الليل، فلدينا في الأسبوع القادم الكثير من العمل، ارتاحوا جيدًا غدًا، وجمعة مباركة مقدمًا .

رد العمال في صوت واحد: حاضر يا باش مهندس.

التف الشاب ذو اللحية، ونظر في عين صاحبه، وقال: لدينا الكثير من العمل الأسبوع القادم يا عبد الباسط، علينا أن ننصب 10 أبراج.

عبد الباسط: نعم كان الله في عوننا يا نضال.. المهم دعنا من الأسبوع القادم، هيا نبدل ملابسنا ونمشي من هذه المنطقة المقطوعة، فإنه يزال أمامنا مسافة طويلة حتى نصل إلى بيوتنا.

نضال ربت على كتف صاحبه وهو يبتسم ثم قال: عندك حق، هيا.

بدل نضال وعبد الباسط ملابس العمل، فارتدى نضال بدلة رصاصية اللون وقميصًا أبيض، وبدون رابطة عنق، بينما ارتدى عبد الباسط بدلة كحليةً، وقميصًا لبنيًّا، ورابطة عنق زرقاء .

ظهرت رأس عبد الباسط الصلعاء من الوسط بالكامل بعد خلعه الخوذة، بينما كان لنضال شعرٌ أسودُ قصيرٌ نسبيًا، لا هو بالناعم المسترسل ولا بالخشن الملتوي. يملك نضال عينًا سوداء عميقة، وله مشية مميزة، حيث يمشي واثقَ الخطى، مفرود الظهر، يرفع الرجلَ ويثنيها في الهواء، ثم يضعها على الأرض مستقيمة كالجذع، وتبقى على هذهِ الحال طالما هي على الأرض، في الوقت الذي تُعيدُ فيه الأخرى ما فعلته أختها .

خرج الشابان من محطة الكهرباء، وتوجها ناحية سيارة حمراء كانت مركونة في إحدى الزوايا، جلس نضال في مقعد السائق، وجلس بجانبه صديقه .

بعد فترة من السير قال عبد الباسط لنضال أنه قد جاع، فرد عليه أنه هو الآخر جائع، كما أنه يريد أن يحتسى كوبًا من القهوة لأن رأسه تؤلِمه لأنه لم يستطع أن يشرب قهوة طوال اليوم من ضغط العمل .

بعد قليل توقف نضال أمام قهوة على الطريق بجانبها أحد المطاعم. كانت القهوة مزدحمة جدًا، وكان الجميع ينظر إلى الشاشة في تركيز، نظر نضال في الشاشة فوجد أنها تعرض مباراة لكرة القدم. فتوجه بالسؤال لعبد الباسط قائلًا: من الذي يلعب اليوم؟

رد عليه عبد الباسط بعد أن ارتسمت على وجهة علامات التعجب: إنه الفريق الأحمر يلاعب الفريق الأبيض، كيف لا تعرف!

ابتسم نضال وقال في استخفاف: ياله من حدث عظيم، كيف لي أن أغفل عنه.. هيا نحضر بعض الطعام.. هيا .

توجه نضال ناحية المطعم الصغير، بينما تحرك عبد الباسط ناحية المقهى وجلس على إحدى الطاولات، كان يسير وعينه مركزة على الشاشة كأنه منوم مغناطيسيًا .

لم يكن يقدِّم المطعم سوى وجبات الفراخ مع الأرز الأبيض فطلب نضال وجبتين ثم أخذهما وخرج من المطعم، وحين خروجه طاف بعينيه ليرى أين جلس صديقه، فلما وجده تحرك ناحيته، وكان عبد الباسط منهمكًا في متابعة المباراة .

وضع نضال الطعام على الطاولة وشد أحد الكراسي وجلس، وقبل أن يبدأ الأكل اتصل بزوجته صمود وأخبرها أن تأكل ولا تنتظره لأنه سيتناول غداءَه في طريقه.
وأخبرها أن تجهز نفسها والأولاد، لأنهم سيذهبون إلى بيت والده بمجرد وصوله، فالطريق طويل، ولا يجب أن يسافروا في ساعات الليل المتأخرة .

كان وجه عبد الباسط حزينًا، وكأن مصيبة قد حلت به، فسأله نضال: لماذا أنت مهموم هكذا؟

رد: الفريق الأحمر متقدم على الفريق الأبيض بهدفين.

قال نضال وهو يضحك: وما الجديد في ذلك، في كل مرة يحدث هذا، لماذا أنت حزين.. أضاف ساخرًا: لا أفهم ما الذي يجبرك على تشجيع هذا الفريق كل هذه المدة.

رد عبد الباسط بغيظ: ليس من شأنك يا نضال، هيا نأكل حتى لا يبرد الطعام .

ضحك نضال، ثم بدأ كلاهما في الأكل، كانا جائعين جدًا، فكانا يأكلان بنهم رغم أن الطعام لم يكن جيِّدَ المذاق.

أنهى الاثنين طعامهما، فقام نضال بمناداة العامل في المقهى وطلب منه كوب قهوة مضبوط، بينما طلب عبد الباسط، كوب شاي ثقيل، سكر زيادة.

لم يرفع عبد الباسط عينه من على شاشة التلفزيون تقريبًا حتى أثناء الأكل. وكان الجو في المقهى المزدحم مشحون، تتعالى صيحات مشجعي الفريق الأحمر عند أي هجمة لفريقهم، وتتعالى صيحات الفريق الأبيض، أيضًا، عند أي هجمة لفريقهم. ولا يخلو الأمر من تبادل السباب بين مشجعي الفريقين، كل فترة .

أذنت صلاة المغرب ولم يتحرك أحد من المشجعين إلى المسجد، قال نضال لعبد الباسط، أن يأتي معه للصلاة، فَهَمَّ

عبد الباسط أن يقوم بتثاقل، لكنه تذكر أنهما على سفر، فابتسم وقال لنضال، أن يأخروا المغرب ويصلوها مع العشاء لأنهما مسافران، ولا ذنب عليهما في جمع المغرب والعشاء. انصاع نضال لكلام صاحبه على مضد وجلس معه بينما يتابع المباراة، وكانت قد اقتربت من نهايتها، فلم يرد أن يزعج صاحبه الذي بدى منهمكًا لدرجة العصبية في مشاهدة المباراة.

أخيرًا أحرز الفريق الأبيض هدفه الثاني وتعادل مع الفريق الأحمر، فصاح عبد الباسط مبتهجًا هو وبقية مشجعي الفريق الأبيض. ابتسم نضال لفرحة صاحبه، ثم قام إلى حمام المقهى .

بعد قليل وقبل انتهاء المباراة بدقيقة أحرز الفريق الأحمر هدفه الثالث، فصاح مشجعي الفريق الأحمر بقوة، وبدأوا في السخرية من الفريق الأبيض. لم يكد يقوم الفريق الأبيض بهجمته الأولى بعد الهدف، إلا وقد أصدر الحكم صافرة نهاية المباراة .

صاح عبد الباسط بغضب قائلًا: لا تزال هناك دقيقة على نهاية المباراة. سب عبد الباسط الحكم واصفًا إياه بالمرتشي، ثم سب الفريق الأحمر. فقام أحد مشجعي الفريق الأحمر

بسباب عبد الباسط وذكر والدته ببذائة، فاستشاط عبد الباسط غضبًا وامسك بكوب الشاي وألقاه بقوة في صدر الرجل .

تجمع زملاء الرجل على عبد الباسط وبدأوا في ضربه بقوة. خرج نضال من الحمام على صوت المعركة، وذهب يبحث عن صديقه، فوجده في موقف لا يحسد عليه. كان من كثرة مهاجميه لا يعلم من أين تأتيه اللكمات .

تحرك نضال بسرعة وجذب عبد الباسط من وسط من يتحلقون حوله، ثم وقف بينه وبينهم، محاولًا تهدئة الموقف، لكنه لم يسلم من بعض اللكمات. استطاع نضال بصعوبة بالغة أن يوقف المعركة، ودفع صديقه الذي كان مصرًا على إكمال المعركة بقوة ناحية السيارة، فأركبه إياها رغمًا عنه، وتحرك بها مسرعًا. لحقهم عامل المقهى يطلب حسابه فتوقف نضال وأعطاه إياه، ثم سار في طريقه.

لم يكن عبد الباسط بالخصم السهل رغم العدد الكبير الذي كان يهاجمه، ومع وصول صاحبه صارت قوتهما أكبر، ربما كان هذا هو السبب الذي دفع الناس في المقهى أن يدعوهم يغادروا بدون قتلهم أو إحداث عاهات مستديمة بهم. فالناس في هذه المواقف، يفقدون قدرتهم على التفكير، ولا تردعهم إلا قوة خصومهم.

كان وجه عبد الباسط ممتلئ بالكدمات، وشفتاه كانتا تنزفان، فناوله نضال منديلًا ليضعه عليها. وكان نضال أيضًا قد تلقى مجموعة من اللكمات في كتفه وظهره وذراعيه بينما يحاول صد اللكمات عنه وعن صديقه .

قال عبد الباسط بغضب: لما لم تتركني أثأر من الكلاب هؤلاء؟

صاح فيه نضال قائلًا: ألا تخجل من نفسك! كان عليا أن أتركهم يقتلوك. لا أعلم كيف لمن هو في مركزك أن يكون بهذه السخافة. لم يفلح التعليم في جعل رأسك أكثر رقيًا. لا زلت تتعصب لهذه التفاهات، ولا زلت تضع نفسك في مشاكل لا طائل منها .

ما الفائدة من كرة القدم هذه حتى تجعلك تدخل في معركة كانت ستودي بحياتك، كما أودت بحياة الكثيرين قبلك بسبب التعصب. اللاعبون يحصلون على الملايين، لكن أنت وأمثالك، ماذا تجنون غير الخلاف وتعكير المزاج! ويصل الأمر بكم أحيانًا للعراك من أجل أناس يعيشون حياة الملوك ولا يأبهون لكم، بينما أنت وأنا ومن هم مثلنا نقضي الساعات في العمل الشاق المستمر للحصول على ما يرفعنا فوق الفقر.

ألا تخجل من نفسك وأنت تتعصب للعبة، تتعصب من أجل فريق لا يربطك به شيء، ولا ينفعك بشيء، ولا ينفع أي أحدٍ سوى أعضاءه أصحاب الملايين والقصور والسيارات الفارهة.

قاطعه عبد الباسط: تقول هذا لأنك تشجع الفريق الأحمر.

رد نضال: يبدوا أنك لن تكف عن الحماقة طوال عمرك يا عبد الباسط، أنت تعلم أني تركت تشجيع الكرة منذ سنين، وأني لا آبه بأي فريق، لا أحمر ولا أبيض. كلهم عندي بلا قيمة. مجرد تفاهة تستخدم لتغيب الناس ودفعهم للدخول في معارك جانبية تشغلهم عن حقوقهم المسلوبة. والعجيب أن أناس مثلك من المفترض أنهم متعلمين يغفلون عن تلك الحقائق، وينهمكون في تعصب أحمق مجنون .

لقد أذنت المغرب ولم يتحرك واحد من هؤلاء الجالسين على المقهى لتلبية نداء الله، حتى أنت فرحت برخصة السفر جدًا لأنها ستمنحك القدرة على إكمال مشاهدة المباراة. تتركون نداء الله، من أجل سراب، وربما يقتل الواحد منكم الآخر بسبب أن أحد الاعبين التحم بقوة مع لاعب في الفريق الآخر. ما لكم أنتم بهذا؟ !

كان عبد الباسط يسمع كلام نضال وترتسم على وجهة علامات الإحراج الشديد، وبدى أن كلام صاحبه قد أثر فيه،

وكان نضال يصيح بغضب، ينظر على الطريق، بينما يقبض على مقود السيارة المسرعة بعصبية .

قال نضال بعد أن هدأت نبرته: إن لم يفهم من هم مثلك، وينأون بأنفسهم عن تلك التفاهات، فمن يفهم يا عبد الباسط؟!

رد عبد الباسط مازحًا في محاولة لامتصاص غضب صديقه: الذي يراك تلعب الكرة لا يمكن أن يصدق أنك أنت من تقول هذا الكلام، إنك أكثرنا لعبًا لكرة القدم يا نضال .

نضال: اللعب رياضة، ليس فيها شيء، وهي يجب أن تهذب النفس، أما التعصب والمتابعة المستمرة لتلك التفاهات التي تشغل المرء عن دوره تجاه أهله ونفسه ومجتمعه، وأكثر من ذلك تشغله عن ربه، هذا هو الخطأ بعينه. ويكون الأمر أسوء عندما يكون من يقع في هذا السفه شخص متعلم .

عبد الباسط بابتسامة: لا تغضب مني يا صديقي، آسف لأني سببت لك هذه المشاكل، وأعدك أني لن أعود لهذا الأمر مرة أخرى .

نضال: أتمنى ذلك يا عبده، أتمنى ألا تعود عن كلامك مثل كل مرة، فأنت كل مرة تقول هذا، ثم أجدني أحاول أن أجذبك بعيدًا عن أحد المعتركات .

ضحك عبد الباسط ونضال في صوت واحد، ثم غير عبد الباسط موضوع الكلام، وبعد قليل كانا قد نسيا ما حدث .

أوصل نضال عبد الباسط إلى منزله ثم توجه مسرعًا إلى شقته.. وقبل أن يصعد إلى الشقة توجه إلى أحد المتاجر، واشترى منه لوح شوكولاه كبير.

عاد نضال ليأخذ صمود وعز الدين وجهاد إلى بيت أبيه حيث سيقيمون الشهرين القادمين، كان نضال سعيدًا بأن يعود إلى بيته القديم، حيث ذكريات طفولته، حيث طيف أمه يجوب بأرجاء المنزل، ويلقي عليها صِورًا من الدفئ والحنان اللذين افتقدهما منذ رحيلها.

دق نضال باب الشقة حتى تَعلَم صمود بقدومه، انتظر قليلاً ثم فتح الباب، وبمجرد أن دخل الشقة وأغلق الباب، جرت صمود خارجة من المطبخ تجاهه باسطة يديها ثم تعلقت برقبته، وأرخت رأسها على كتفه الأيمن، وضمته إليها بقوة ورقة، أما هو فقد لف يده حول خصرها، ورفعها عن الأرض، ثم وضع رقبته على كتفها الأيمن، وأغمض كل منهما عينيه شاعرين أن الزمان قد توقف.

كانت صمود تحتضن نضال كل يوم بخوف ووحشة قبل أن يذهب إلى العمل، كأنه مسافر لسنين، وإذا عاد احتضنته بشوق ولهفة وفرحة كأنه عائد من سفر طويل. هي تفعل ذلك بدافع حبها الصادق له، فهي بالفعل كانت تشعر بوحشة شديدة وهو مغادر عنها، وتشعر بفرحة وشوق ولهفة لما تراه عائدًا إليها. وقد كانت هذه الأحضان تمثل لها معنى الأمان، الأمان بوجودها قرب من تحبه ويحبها، وكأن قلبها يريد أن يتأكد أن قلب من يحب لا زال قريبًا منه، ولا يحدث هذا إلا بتلامس جسديهما، وسماع قلبها نبضات قلبه، كانت

تشعر كأن روحها تتحد مع روحه بهذا العناق، وكأن قلوبهما هي التي تتعانق.

أما هو فكانت الأحضان تلك بالنسبة له دواء من كل أسقام النفس، فحضن الصباح يضخ في قلبه دفقات من الإصرار والتفاؤل والتحدي، وحضن المساء يمتص من قلبه كل الهموم والمشقات، ويعيد إلى جسده الحيوية بعد ما لاقاه في يوم عمل متعب، كان نضال يؤمن أن صمود لا يمكنها، مهما حاولت التوقع، أن تدرك مدى تأثير تلك الأحضان على حياته ومدى السعادة التي تبثها في قلبه.. حتى أنه كان يؤمن أنه لا سعادة في الدنيا أعظم من هذا العناق، المفعم بالأشواق والحب.

بعد أن ظلّا لعدة لحظات في غمرة من السُكْر فتح نضال عينيه المغمضتين ثم فتحت صمود عينيها، فأنزلها إلى الأرض وابتسم لها بينما ينظر إلى عينيها فابتسمت ثم خفضت رأسها، فوضع يده أسفل ذقنها ورفع رأسها برفق إلى أعلى ثم أخرج من جيبة لوح من الشوكولاه الداكنة المحشوة بالبندق والتي تحبها صمود كثيرًا، وناولها إياها، لما رأت صمود الشوكولاه، زادت خدودها حمرة، واتسعت عيناها اللوزيتين، وأبرقتا من الفرحة بينما كانت تنظر إلى الشوكولاه، ثم قفزت واحتضنت نضال مرة أخرى، وطبعت قبلة على خدة الأيمن قائلة بفرح: شكراً يا حبيبي! قال نضال

وصوته يهتز من نشوة السعادة: يجب أن نغادر الآن قبل أن يتأخر الوقت أمامنا سفر طويل، ولا أريد أن نسافر في ساعات الليل المتأخر، هل ألبستِ الأولاد ملابسهم، وجهزتِ الأشياء التي سوف نأخذها معنا إلى بيت أبي؟ ردت بينما لا تزال متعلقة برقبته تمسك بلوح الشوكولاه بإحدى يديها: نعم يا حبيبي، كل شيء جاهز. ثم نزلت واضعة مشط قدمها على مشط قدمه بينما لا تزال يدها ملتفة حول عنقه قائلة له بينما تنظر لعينيه، وتقرب أنفها من أنفه حتى أنهما يتنفسان نفس الهواء: هل سنغادر حالاً؟ ردّ: نعم. ضمّت شفتيها ثم ابتسمت وقالت: إذًا سأذهب لأنادي عز الدين وأحمل جهاد، تحولت ابتسامتها لابتسامة سخرية وأكملت: وأنت ستجد حقائب السفر في غرفة النوم، احملها إلى السيارة.. هيا بسرعة. رد: أمرك مطاع يا سيدتي، لكن سأصلي أولًا.

قبلته قبلة سريعة ثم أطلقته لتأتي بجهاد وعز الدين، بينما ذهب هو ليصلي ثم يحمل الحقائب إلى السيارة.

بينما يسير تنهد نضال بعمق، وشعر بالراحة لأن صمود لم تلاحظ عليه آثار العركة، كانت ستفتح له تحقيقًا لن ينتهي، وربما لم يكونا ليسافرا هذه الليلة بسبب هذا الأمر.

وصلت السيارة بيت الجد، وقد استقبلهم بفرح شديد، وكان قد اشترى لجهاد مجموعة من الألعاب، كما اشترى لعز

الدين جلبابًا صغيرًا، وطاقيةً بيضاوين حتى يصلي بهما يوم الجمعة. فرح عز الدين جدًا بهدية جده وشكره عليها، ولم يستطع عز الدين الصبر لليوم التالي حتى يجربها فسارع ولبس الجلباب والطاقية وظل يتمشى بهما متبخترًا مسرورًا، تركه الجد إلى أن جاء وقت الطعام فقال له أن يغير ملابسه الجديدة حتى لا تتسخ. تناولوا العشاء وجلسوا يتسامرون لفترة ثم خلد الجميع للنوم قبل منتصف الليل، حتى يستطيعوا الاستيقاظ لصلاة الفجر.

# الجمعة الرابعة

صلى الجد وعز الدين ونضال صلاة الفجر، ثم عادوا إلى المنزل، أيقظ نضال صمودًا لتصلي الفجر، ثم انضم إلى والده وإلي عز الدين حيث اقترح الجدُّ أن يقرأ ثلاثتهم القرآن سويًا. وبعد أن أنهوا قراءتهم، قام عز الدين إلى والده وقال له: ألن تكمل ليَ القصةَ يا أبي؟

نضال: بالطبع يا عز الدين لكن لنستأذن جدك أولًا.

الجد بابتسامة: قد أذنتُ. هيا اذهبا! افعلا ما كنتما تفعلانه في شقتكم في المدينة، لا يجب أن يغير وجودكم هنا أي شيء من عاداتكم، ولا أريد أبدًا أن يشعرَ أحد منكم بالخجل من عمل أي شيء يحبه خشية أن يزعجني، أنا لن أنزعج طالما لا تفعلون شيئا محرمًا.

قال نضال: شكرًا يا أبتي، هل لك أن تعطيني أحد الكتب من مكتبتك.

الجد: بالطبع، وأيٌّ كتاب تريد؟

نضال: أريد كتاب "لعبة الأمم "

نظر الجد إلى نضال قليلًا ثم ابتسم ابتسامةَ رضًا على ما يقوم به ابنه مع حفيده، ثم قام إلى أحد الأرفف وأخرج الكتاب وناوله لنضال. قام نضال وعز الدين إلى الشرفة وتركوا الجد في مكتبه، حيث توجه هو إلى مكتبته ليطالع أحد الكتب.

جلس نضال وعز الدين في الشرفة على كرسيين خشبيين، تطل الشرفة على حقول على مد البصر، وتغرد حولهم مجموعة متنوعة من الطيور بصوت يبث في النفس بهجة وسعادة، يزيد تلك السعادة تنسمهم الهواء العليل المحمل بخليط من روائح شجر الياسمين والفل والريحان المزروعِ أمام المنزل.

نظر نضال إلى عز الدين ثم قال: توقفنا يا ولدي في الجمعة الفائتة عند نكبة فلسطين وتكون نظامٍ عالميٍ تحكمه أمريكا في الظاهر وإسرائيل من وراء الكواليس، ورغم أن الاتحاد السوفيتيّ كان في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها، إلا أن كثيرًا من المؤشرات كانت تؤكد أنه لن يعدوَ المرتبة الثانية كقوة عالمية بعد أمريكا، وسأوضح لك سبب ذلك فيما بعد بمشيئة الله.

وعلى أي حال رغم الاختلافات السياسية العميقة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا إلا أنه كانت هناك اتفاقات فيما بينهم هي

التي شكلت العالم الذي نعرفه الآن، وكان الأمر يدار بحنكة من اليهود عن طريق مؤسساتهم الاقتصادية والإعلامية وعن طريق الضغط على رجال السياسة سواء بالابتزاز أو بالإغراء لتحويل العالم للنظام العالمي الحالي.

## القومية والحدود

كانت أولى مظاهر النظام العالمي الجديد هي القومية ورسمُ الحدود. بدأ الأمر باتفاقية سايكس بيكو في عالمنا الإسلامي، وكانت اتفاقيات مماثلة تجرى في كل أنحاء العالم، لتقسيم العالم إلى دول صغيرة ثابتة الحدود. وقد حرص رجال السياسة الذين تم تعينهم من قبل النظام العالمي أن يغرسوا الأفكار القومية داخل كل شعب من تلك الشعوب، فصارت كل حكومة تزرعُ في نفوس شعبها أنهم الشعب المختار منذ بدأ الخليقة، وأنهم منذ خلق الله آدم وهم يسكنون في تلك البقعة من الأرض، تلك البقعة الطاهرة التي كرمها الإله وباركها عن كل ما سواها. وكان هدف تلك الشعارات التي ما خلت دولة منها، أن تنعزل كل دولة عن الدول التي حولها وأن تُرسم حدود صارمة بين كل دولة وجيرانها.. وتشتعل الحروب الطاحنة لانتهاك تلك الحدود الوهمية المرسومة على الخرائط.

كان النظام العالمي يستفيد من ذلك أيَّما استفادة، فهو بذلك يشعل الصراعات بين الجيران والأهل ويبيع لهم السلاح نظير مواردهم والسيطرة على اقتصادهم. صار النظام العالمي الجديد بعد احتلال فلسطين ينظر إلى الاستعمار بطريقة أكثر دهاءً، فلم يصبح في حاجة لتحريك جيوشه

وينفق أموال طائلة ويعرض جنوده للمخاطر، بل صار بطريقته الخبيثة تلك يمتص موارد الشعوب ويسيطر على الدول سياسيًا واقتصاديًا عن طريق تغذية الصراعات القومية وعن طريق دعم أنظمة استبدادية عميلة تنهب ثروات شعوبها ثم تدفع إتاوةً لحكام النظام العالمي نظير أن يتركوها في الحكم، ويغضوا الطرف عن جرائمها تجاه شعبها .

لم يختلف الوضع في عالمنا الإسلامي شيئًا عن بقية العالم، فقد تم تقسيم الأمة إلى دويلات صغيرة جدًا ليس لها وزن في مقاييس القوة العالمية. ولقد أخبرتك سابقًا أن الجامعة العربية كانت قد أُنشأت لكي يتم الاستعاضة عن الوحدة الإسلامية بالقومية العربية، ورغم تغير النظام في مصر من الملكية إلى الجمهورية العسكرية، إلا أن النظام الجديد قد تلقف الفكرة وبدأ في تنفيذها بتوسع وقوةٍ أكبر.

جاء عبد الناصر والذي لُقب بزعيم العرب رافعًا شعار الوحدة العربية التي لم تحدث قط. فكما أخبرتك يا ولدي أنه لم يكن سوى شعار، كان شعار العروبة عند عبد الناصر شعارًا ذا عائد ضخم، فقد كان يستثمره عبد الناصر في تضخيم صورته كزعيم للعروبة وفي جلب المعونات الاقتصادية من حكام النظام العالمي.

كانت أمريكا تبحث عن رجل يحمل صفات الزعيم يوحد كل العرب على مبدأ قومي واحد، فيمحوا بقايا فكرة الوحدة الإسلامية من نفوس الشعوب الإسلامية نفسها، ويوجهُها في اتجاهٍ قوميٍّ سهلِ السيطرة عليه .

يقول مايلز كوبلاند وهو سفير أمريكي -وكان مختصًا بشؤون الشرق الأوسط- وكان على علاقة وطيدة بعبد الناصر بعد توليه السلطة، يقول في كتابه لعبة الأمم، فتح نضالٌ الكتاب على أحد الصفحات وبدأ يقرأ منها: "لقد كنا بحاجة إلى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل، سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتأباها، وكان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متعطش للسلطة، لا يدفعه إليها إلى حب مطلق وشغف فريد بها" [1]

رفع نضال عينه من الكتاب ونظر إلى عز الدين قائلًا: وقد وجدوا ضالتهم في عبد الناصر من بين كل حكام العرب.

فقاطعه عزُّ الدين: تقول يا والدي أن كل ما كان يقوله عبد الناصر عن العروبة كان مجرد شعارات! إذًا أنت تقصد أنه لم يكن يؤمن بها وأنه لم يتبناها إلا ليحصل على الزعامة.

نضال: أحسنت يا ولدي، وقد ذُكر في نفس الكتاب "لعبة الأمم" كلامًا بنفس هذا المعنى، فقلب نضال عدة صفحات

وقال: يقول كوبلاند: "لم يكن لدى أيٍّ من المسؤولين المصريين يومها (يقصد وقت ثورة 52) سواءً من العسكريين أم من المدنيين أي مفهوم واضح حول العروبة والعرب، وكان أول المبادئ المتبعة في صناعة الانقلابات، في أي بلد عربي، هي أن ترفع شعارات وطنية إقليمية، فمصر للمصرين، وسوريا للسورين، والعراق للعراقيين. وكل الكلام عن الأخوَّة العربية وشعار "كلنا عرب" لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة، ولم يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأي انقلاب عسكري، ويبقى الولاء للانقلاب هو المقياس الرئيسي لنجاحه وفشله، ولقد انطبق هذا الوضع تمامًا على المصريين عامة، وعبد الناصر خاصة. فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف إلا القليل عن العرب، بل ولم يكن يشعر أنه عربي، وكذلك لم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي. ولكنه أصبح زعيمًا عربيًا بعد أن دخلت كلمة "عرب" القاموس السياسي لشعوب المنطقة، ولم تساعده زياراته لبعض الدول العربية منذ سنة 1952 على اكتساب أيةَ خبرة جديدة في هذا المجال، وإنما أكدت شكوكه السابقة عن العرب. فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين، واللبنانيون مرتشيين وفاسدين، والسعوديون قذرين، واليمنيون أغبياء متخلفين، والسوريون مخادعين لا يقدرون المسؤولية ولا يثقون بغيرهم، ولكن عبد الناصر بالتأكيد يُنكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك، بل على العكس

فهو يعتبر أن في العالم حقيقة ملموسة هي "العالم العربي". كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والأردنيين. الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الإقليمية بعد تخلصهم من أنظمتهم." [2]

قال عز الدين: لكن ما الذي جعل عبد الناصر يتبنى القضية الفلسطينية ويعارض أمريكا وإسرائيل، إن كان كل ما يقوله شعارات؟ وإن كان عميلًا لأمريكا، كيف يعارضها؟ وما الذي جعله يأمم قناة السويس ويتحدى القوى العالمية؟

نضال يزم بين شفتيه ويفكر قليلًا في أسئلة عز الدين ثم يقول: لا أظن أن عبد الناصر كان عميلًا لأمريكا لأنه كان يحبها، فهو ما لبث لما رفضوا أن يدفعوا له المعونة السنوية التي طلبها أن توجه للاتحاد السوفيتي لكي يدعموه. كان عبد الناصر يسعى لمصلحته، وكان يرى في نفسه ذاك الزعيم المخَلّص، فكان يتحرك من هذا المنطلق، لذا فقد تبنى قضية فلسطين لأنها كانت تشغل كل أذهان العرب في هذا الوقت، وكان تبنّيه لها بمثابة المفتاح لدخول كل قلب عربي. وقد فعل ذلك عبد الناصر ببراعة رائعة فقد استطاع بادعائه تبنيه القضية الفلسطينية أن يبسط سيطرته على كافة شعوب العرب حتى صار صوته مسموعًا لدى شعوب البلدان العربية أكثر من صوت رؤساء تلك البلدان نفسها، وقد

استخدم إعلامه في ذلك على أبرعِ ما يكون الاستخدام فقد وصلت إذاعة "صوت العرب من القاهرة" كل أنحاء المنطقة العربية، حتى كان يتابعها البدو في صحراء العرب.

بتلك الشعارات أصبح عبد الناصر له القدرة على تحريك كافة الشعوب العربية إلى الاتجاه الذي يريد، وكان بلا شك الرجل الذي أرادته أمريكا.

فأمريكا لم تكن تخاف أبدًا من شعارات عبد الناصر عن تحرير فلسطين بل إنها كانت تدعمها، لأنها كانت تعلم أنها أبدًا لن تدخل حيز التنفيذ، فقد كان عبد الناصر يسب أمريكا وإسرائيل بالنهار ثم يجلس في الليل مع السفراء الأمريكان يتفاوض معهم بشأن المعونة الأمريكية.

أما تأميم قناة السويس، فقد كان أحد القرارات العنترية التي اعتاد عليها الزعيم حتى يكون أهلًا للزعامة، ثم ذهب الزعيم يستنجد بأمريكا وبالاتحاد السوفيتي بعدما أوشك أن ينهزم في العدوان الثلاثي، فما كان منهم إلا أن أوقفوا الحرب، وهذا بلا شك لعلمهم بأهمية عبد الناصر بالنسبة لهم.

بل أني سأقول لك شيئًا أكثر خطورة يا ولدي، لقد كانت تعلم أمريكا بانقلاب 1952 قبل حدوثه، بل إن اجتماعات سرية قد عقدت بين الضباط الأحرار وبين مندوب وكالة

الاستخبارات الأمريكية كيريمت روزفلت، علم منها روزفلت بأن انقلاب مؤكد سوف يقوم به الجيش في مصر، وأرسل خطابًا لأمريكا أوصى فيه بأن لا تتدخل أمريكا لصالح الملك فاروق، وأن يسمحوا بحدوث الانقلاب بل أوصاهم بعدم ذكر أنه انقلاب في وسائل إعلامهم، واعتبار الحدث بأنه مجرد اضطرابات داخلية .

وقد دعمت أمريكا يا ولدي وبقوة انقلاب عبد الناصر على محمد نجيب أول رئيس لمصر، وبذلك وصل للسلطة الرجل الذي كانت تريده أمريكا. [3]

عز الدين: لكن يا أبي، لا زلت لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يكون المرء بهذا التناقض، كيف يدَّعي معاداته لأمريكا ثم ينفذ سياستهم من خلف الكواليس.

ثم نظر نضال ناحية اليسار بدون أن يحرك وجهه وكأنه يراقب شيئًا بعيدًا، أو يبحث عن شيء ما بعيد، حرك يده أمام عينيه في حركة توافقية وهو يقول: ربما كان الضباط الأحرار في البداية يريدون تحرير مصر بالفعل، لكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك بدافع عقيدة سليمة، ربما كانوا يفعلون ذلك بدافع الحقد على المحتل، لذا لم يكن يهمهم مع من يتعاونوا، المهم أن يطردوا المحتل، المتمثل في إنجلترا، حتى لو دفعهم ذلك للتعاون مع أمريكا.

لكن لما تملكوا السلطة سيطر عليهم حبَّها، ولما كانوا لا يتبعون عقيدة سليمة، تحول الثائر داخلهم إلى طاغية، وطفقوا ينهبوا ثروات البلاد، وفعلوا أبشع الجرائم حتى يحافظوا على سلطتهم، بل تحالفوا مع أعداء أمتهم ونفذوا سياساتهم حتى تسمح لهم تلك القوى العالمية في البقاء في الحكم. وبالطبع لم يكن من الحكمة أن يقوموا بأعمال العمالة تلك في العلن، فهذا سيقضى على شعبيتهم وعلى الشعارات التي يستخدمونها ليل نهار في تنويم شعوبهم ودفعها في اتجاه يبعد كل البعد عن تحقيق حريتها .

وقد قال الرئيس محمد نجيب في مذكراته: "ولا أريد أن أنسب لنفسي ما هو ليس لي، ولكن الحقيقة تقتضي أن أقول إني أول من أطلق عبارة "الضباط الأحرار" على التنظيم الذي أسسه جمال عبد الناصر. وأنا الآن أعتذر عن هذه التسمية، لأنها لم تكن اسمًا على مسمًى فهؤلاء لم يكونوا أحرارًا إنما كانوا أشرارًا، وكان أغلبهم كما اكتشفت فيما بعد من المنحرفين أخلاقيًا واجتماعيًا.. ولأنهم كذلك كانوا في حاجة إلى قائد كبير ليس في الرتبة فقط وإنما في الأخلاق أيضًا حتى يتواروا وراءه ويتحركوا خلاله، وكنت أنا هذا الرجل للأسف الشديد." [4]

ولم تكن العمالة الخارجية هي فقط جريمتهم الوحيدة يا ولدي، فقد طفق عبد الناصر وزملائه على محو الهوية

الإسلامية من مصر ومن كل أقطار بلاد العرب، فقد استخدموا الإعلام لتشويه كل ما هو إسلامي وتحويله إلى مادة للسخرية، فقد كنت ترى يا ولدي في أفلام السينما في الخمسينات والستينات، السفور والعُري يعرض على أنه صورة التمدن والحداثة، كنت ترى البطل يأخذ زوجته أو حبيبته ليسهر معها في أحد الكباريهات حيث الراقصات والخمور، وكأنه شيء عادي جدًا بل شيء مستحسنٌ أيضًا. بل كان -وبشكل يبدو متعمد- يشرب نجومُ الأفلام الخمور في أغلب مشاهد الفيلم، يشربونها بعد الغداء وبعد الإفطار وفي السهرات ويقدموها للضيوف.

وكانوا يصورون المشايخ على صورة الدراويش المضحكين الذين لا يفهمون شيئًا من أمور الدنيا. وقد أثرت يا ولدي تلك الحملة الإعلامية شرَّ تأثير على المجتمع الإسلامي، فصار الناس ينفرون من الدين ومن متبعيه وانتشر السفور حتى عمَّ أنحاء البلاد، وصار أمرًا عاديًا بين الفتيات المسلمات أن يرتدين ملابس عارية مثل نجمات الأفلام .

عز الدين: لكني قد رأيت خطابًا لعبد الناصر، ألقاه فوق على أحد منابر المساجد.

نضال: بالطبع يا ولدي لم يكن من الممكن أن يمحو الإسلام بشكل كامل ولم يكن ذلك أحد أهدافهم.. هم فقط كانوا يريدون أن يمحوا الإسلام الذي يُشكِّلُ خطرًا على وجودهم، الإسلام الذي يقول لهم أن ما يفعلونه حرامٌ، الإسلام الذي يحرم شهواتهم ويجرِّم طغيانهم، لكن لم يكن أبدًا ذلك الإسلام المنحسر في عبادات روتينية خطرًا عليهم، بل إنهم -كما ذكرت أنت- كانوا يستفيدون منه في كثير من الأحيان. فقد كانوا يستخدموه في تحريك الناس من خلال الطَّرقِ على العواطف الدينية، كان هذا الإسلام مهمًا لهم جدًا، فما الذي سيدفع جنديًا أن يترك أهله ليخدم في الجيش سنين بدون أن يحصل على راتب إلا إن كان ذلك بدافع ديني، وما الذي سيجعل الناس يصبرون على الفقر والجهل والمرض، إلا بدافع ديني، وما الذي سيجعلهم يتبعون قرارات الزعيم التي توردهم وأبناءَهم المهالك بدون عائد، إلا الدافع الديني، كان لابد من وجود الدين لهم إذًا، لكن يجب ألا يخرج هذا الدين عن الحيز المسموح له، لا يجب أبدًا أن يمنعهم عن ممارسة نزواتهم أو يفرض عليهم فعل شيء يهدد حكمهم .

لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الأمر أكثر من ذلك، فإن أردت الاستزادة يمكنك أن تقرأ كتب أمثال "لعبة الأمم"، وكتاب "كنت رئيسًا لمصر" للزعيم محمد نجيب، وغيرها من الكتب التي تحدثت عن حكم عبد الناصر بتفصيل أكبر.

ما أردت أن أوصله لك هو كيف استطاع النظام العالمي أن ينشر الأفكار القومية وأن يعين مجموعة من الزعماء يقومون بالحفاظ على مصالحه ونهب موارد تلك البلاد نيابة عنه ثم تسليمها له بعد ذلك بدون أن يتكبد أي عناء .

وما أريدك أيضًا أن تخرج به من هذا الكلام أن فكرة القومية العربية التي تبنتها الجامعة العربية في البداية ثم حولها عبد الناصر بعد ذلك لعقيدة غزت نفوس كل الناس في بلاد العرب هي مجرد خدعة هدفها محو الهوية الإسلامية، وليس هدفها أبدًا توحيد بلاد العرب، والدليل الأكبر على هذا أن تلك الوحدة لم تحدث أبدًا.

عز الدين: وهل يا والدي كان كل حكام العرب فاسدون مثل عبد الناصر؟

ضحك نضال بقهقهة ثم رد: بل كان عبد الناصر هو أشرفهم يا عز الدين.. لكنه كان الأكثر تأثيرًا على الأفكار والأحداث في المنطقة، وهذا ما جعلني أحدثك عنه .

# المنظمات الراعية للنظام العالمي

الآن سنتحدث يا عز الدين عن المنظمات التي تعمل على تماسك النظام العالمي وتدعم بقاءَه. كنت قد أخبرتك سابقًا عن دور الأمم المتحدة في نكبة فلسطين وكيف أنها أعطت إسرائيل 56% من أراضي فلسطين رغم أنهم لم يكونوا يملكون من أراضيها سوى 7% فقط.

هذا مثال من مئات الأمثلة التي استُخدمت فيها الأمم المتحدة ومجلس الأمن لخدمة مصالح الدول الكبرى، فهذه المنظمات، كما أخبرتك سابقًا، قد أنشأتها الدول الكبرى ولا يمكن لأي قرار أن يمرر إلا إن وافقت عليه تلك الدول جميعًا، وبذلك تكون تلك المنظمات سيوف على رقاب الدول والشعوب المظلومة تمسك بهذه السيوف الدول الكبرى .

فهذه الدول لها الحق في التدخل العسكري في أي دولة واحتلالها بدون أن يصدر من مجلس الأمن أي قرار ضدها، لأنها نفسها تملك حق الفيتو في منع أي قرار ليس في صالحها. أمريكا مثلًا احتلت فيتنام وتسببت في موت ما يزيد عن مليوني فيتناميّ فقط لأن مصالحها الاقتصادية

والسياسية في فيتنام كانت مهددة إذ سيطر الشيوعيون على الحكم هناك.

وفي الإكوادور قتلت المخابرات الأمريكية الرئيس رولدوس لأنه أراد أن يحمي ثروات بلاده البترولية من النهب الذي كانت تقوم به الشركات الأمريكية هناك. ورغم الدلائل القاطعة على ذلك الاغتيال لم تتحرك أي من المنظمات الدولية لعقاب المتسببين.

ولم تكن تلك جريمة أمريكا الوحيدة من هذا النوع، فقد اغتالت المخابرات الأمريكية رجلًا آخر بعد شهرين فقط من مقتل رولدوس وقف ضد سياستها الاستعمارية لنهب ثروات العالم، وهو الرئيس عمر توروخيوس؛ قُتل الرئيس عمر توروخيوس رئيس بَنَما في يوليو 1981 في حادث طائرة، بعدما أرغم الولايات المتحدة على التخلي عن قناة بنما وأعادها لأرضِه وموطِن أهله. وكالعادة لم يسمع لأي من المنظمات أمثال الأمم المتحدة أي صوت بهذا الصدد. [5]

وبعد موت الرئيس عمر، تولى الرئاسة في بنما الرئيس مانويل نورويجا، فحاولت الولايات المتحدة إعادة بسط السيطرة على قناة بنما لكن الرجل رفض هو الآخر تلك التدخلات، وسعى لمحاربة الفقر والاضطهاد الذي كان يعاني منه أهل بنما بسبب سرقة أمريكا لثرواتها، فلما رأت

أمريكا أنه لا رجاء في استمالة الرئيس نورويجا وإعادة بسط سيطرتها على قناة بنما، قامت في ديسمبر 1989 بقصف جوي عنيف على سكان بنما العزل، ورغم أن ذلك يعد انتهاك معلن للقانون الدولي إلا أنه لم تتخذ أي قرارات من الأمم المتحدة ضد أمريكا. [5]

غزت أمريكا بنما وقتلت عددًا كبيرًا من الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وأحرقوا بيوت المدنيين ودمروا الكثير من الأحياء السكنية، ثم خرجوا على العالم يقولون إنهم ما فعلوا ذلك إلا للتخلص من الرئيس نورويجا الذي صوره إعلامهم بأنه مجرم وتاجر مخدرات، وقد اعتقلت أمريكا الرئيس نورويجا من داخل دولته وأخذتْه إلى أمريكا ليحكم عليه بالسجن 40 سنة ليس لشيء إلا أنه رفض الهيمنة الأمريكية .

قال عز الدين: وكيف لم يتكلم أحد عن تلك الجرائم البشعة يا والدي؟

نضال: بلى، تكلمت -على استحياء- بعضُ وسائل الإعلام وبعض المنظمات الحقوقية عن مدى بشاعة الجرائم التي قام بها الجنود الأمريكيين في بنما، لكن سرعان ما غُطي على الأمر ونُسي، ولم تتخذ أي من المنظمات الدولية أمثال الأمم

المتحدة والتي من المفترض أن هدفها المعلن هو حماية الأبرياء أي إجراء ضد أمريكا.

هذه مجرد أمثلة ضئيلة عن الجرائم التي قد وقعت فيها أمريكا ضد كل من تجرأ على التصدي لمحاولتها الاستعمارية لسرقة شعبه، ولم يتخذ أي إجراء ضد أمريكا في أي من تلك الجرائم. بل إن أمريكا قد دعمت انقلابات عسكرية عدة طالت الحكومات المعارضة للسياسة الأمريكية. أمثال حكومة تشيلي المنتخبة بقيادة الرئيس اللندي والذي قاوم السياسات الاقتصادية الأمريكية التي كانت تستنزف ثروات تشيلي فكان مصيره أن دعمت أمريكا انقلابًا عسكريا هناك قاده الجنرال أوغستو بينوشيه، فاستولى على الحكم في تشيلي وقتل الرئيس اللندي، وقام بجرائم بشعة ضد المدنيين حيث سجن الآلاف وقتل الآلاف من كل من كان يشتبه في معارضتهم لسياسته، ولم تتحرك ضده أي من المنظمات الدولية التي تدعي حمايتها للحريات وحقوق الشعوب.

عز الدين: لكن يا أبتي، ألم تقل أمريكا أنها غزت بنما لأسقاط الرئيس نورويجا لأنه مجرم، لما لم تفعل أمريكا ذلك مع تشيلي؟

نضال: لأنها كانت تكذب يا بنيَّ، فما غزت أمريكا بنما إلا لسرقتها، فإنهم على عكس ما حدث مع نورويجا دعموا بينوشيه وقدموا له كافة المساعدات التي تعمل على توطيد حكمه، ذلك لأنه ما أتى إلى لتنفيذ سياستهم في تشيلي. [6]

لو ظللت أحدثك يا عز الدين عن الجرائم التي قامت بها أمريكا وغضت الأمم المتحدة والمنظمات العالمية الطرف عنها ربما لن ننتهي من الكلام قبل العام القادم، لذا سأكتفي بالأمثلة السابقة وسأحدثك عنها بتفصيل أكبر في المستقبل بمشيئة الله .

عز الدين: هل أمريكا وحدها يا والدي هي من تقوم بتلك الجرائم والتدخلات في شؤون الدول الأخرى، ثم تغض الطرف عنها المنظمات الدولية؟

نضال: بالطبع كل الدول الكبرى تفعل تلك الجرائم، فعلى سبيل المثال في 2013 تدخلت فرنسا عسكريًا في مالي للحفاظ على نفوذها السياسية والاقتصادية هناك وذلك بدون الرجوع للأمم المتحدة أو لمجلس الأمن، ولم يحدث أن قامت الأمم المتحدة بالاعتراض على هذا الفعل المخالف للقانون الدولي. بل إن وسائل الإعلام لم تهتم كثيرًا بالأمر، ولم يعرفه سوى المهتمين بالسياسة .

هذه المنظمات يا ولدي ليس لها دور إلا أن تعطي الشرعية الدولية لقرارات النظام العالمي، ولا يمكن أبدًا أن تعطي أي قرار يخالف إرادة النظام العالمي الحاكم. فإذا قامت ثورة ضد حكومة ظالمة في أحد البلدان وكانت هذه الثورة مخالفة لما يريده النظام العالمي الحاكم قامت الأمم المتحدة ومثيلتها من المنظمات بتجريم تلك الثورة وعدم الاعتراف بالحكومة الناشئة وفرض عقوبات عليها حتى تسقط، ثم يتولى الحكم في تلك الدولة النظام الذي يرضاه النظام العالمي الحاكم .

وإن قام أحد الحكام بمحاولة الخروج عن النظام العالمي للنهوض بأمته، قامت تلك المنظمات بتجريم فعله، وفرض عقوبات عليه، وربما السماح بإعطاء الشرعية الدولية للدول الكبرى لغزو تلك البلد. لكن الحقيقة المسلّم بها أنه لن تقوم هذه المنظمات أبدًا بأخذ أي قرار ضد إرادة الدول الكبرى.

وستجد تلك المنظمات، يا ولدي، دائمًا ما تكيل بمكيالين، فلما حدثت أحداث الحادي عشر من سبتمبر راحت تلك المنظمات تصيح وتنبح، وتصف كل المسلمين في أنحاء العالم بالإرهاب، وأعطت الشرعية لأمريكا وحلفاؤها بغزو أفغانستان والعراق للرد على تلك العملية الإرهابية. فقامت أمريكا وحلفاؤها بقتل ملايين من الأبرياء وبتدمير كثير من المدن وتشريد ملايين من الأطفال والنساء، رغم أن كل ضحايا أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانوا 2400

شخص، أعطت بهم المنظمات الدولية الشرعيةَ والحق لأمريكا وحلفاؤها لقتل وتشريد الملايين من الأبرياء، واستفادت أمريكا من ذلك أن سيطرت بشكل كامل على موارد العراق وأفغانستان بعد أن دمرتهم.

وهناك يا ولدي كتابات عدة ظهرت مؤخرًا تؤكد أن أمريكا وإسرائيل ربما يكونون هم من قاموا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر لأخذ الشرعية الدولية لغزو العراق وأفغانستان، ومن هذه الكتابات كتاب صدر تحت أسم "تحيز متطرف" لأحد الضباط في الاستخبارات الأمريكية تُسمى سوزان لينداور، قالت فيه أن أمريكا وإسرائيل كانوا على علم بأحداث الحادي عشر من سبتمبر قبل حدوثها بفترة طويلة، وأنه لابد من تورطهم في تلك الأحداث.

فإياك يا ولدي في يوم من الأيام أن تظن أن تلك المنظمات الدولية أمثال الأمم المتحدة سوف تعيد لك حقك أبدًا، فهم نشأوا للمدارة على سارقي الحقوق وليس لإعادة الحقوق. واعلم أن كل من يلجأ لهذه المنظمات لإعادة حق شعبه فهو إما جاهل أو غبي أو عميل يريد تنويم شعبه وإلهائهم بتلك الترهات حتى لا يتحركوا في الاتجاه السليم لاستعادة حقوقهم. إنك يا ولدي لن تعيد حقك إلا بيدك. لن يساعدك هؤلاء أبدًا.

عز الدين: وماذا عن المنظمات الحقوقية يا أبتي، فإنها كثيرًا ما تصدر تقارير ضد الدول الكبرى؟

نضال: التقارير ليس لها أي معنى يا ولدي طالما لم يسلط الإعلام عليها الضوء، وإنَّ هذه التقارير تصدر لكي تحصل تلك المنظمات على ثقة الناس، حتى إذا نشروا أكاذيبهم أُعتبر كلامهم موثوق به، وقتها يسلط الإعلام الضوء على تلك الأكاذيب ويجعلها قضية رأي عام يشغل بها الناس ويغير مفاهيمهم عن الأمور بل ويقلب الحق باطل والباطل حق .

وإنك تستطيع أن ترى ذلك الكيل بمكيالين في الإعلام وحتى في المنظمات الحقوقية تلك، تقريبًا، يوميًا، فتجد منظمات حقوق المرأة لا تسكت عن مهاجمة الحجاب وادعاء أنه مضاد لحقوق المرأة، ثم تجد تلك المنظمات نفسها في صمت مطبق عندما يُقتل النساء وتغتصب على أيدي جنود جيوش الدول الكبرى، أو على أيدي جنود الدول التابعة للدول الكبرى .

بل تجد تلك المنظمات والإعلام يتكلم بغير انقطاع عن الحجاب كمضاد لحقوق المرأة ثم تراها صامته عن الاتجار الجنسي بالنساء والذي تقوم به عصابات دولية، ففي روسيا على سبيل المثال توجد عصابات تقوم باقتياد النساء الفقراء

عن طريق وعدهم بعمل، ثم بعد ذلك يقومون ببيعهم كرقيق في أسواق متخصصة في تلك التجارة المشبوهة مثل سوق الأريزونا، وقد قالت لوريتا نابولي في كتابها "الاقتصاد العالمي الخفي": "تعد إسرائيل من أكبر موردي البغايا السُّلافيات (الروسيات)، وبحسب تقديرات عدة مصادر، يبلغ عدد الرجال الإسرائيليين الذين يستعينون بخدماتِهم مليونَ رجلًا في كل شهر. ووفقًا لما أوردته لجنة الاستيضاح البرلماني الإسرائيلية فإنه "يتم تهريب حوالي3000 إلى 5000 امرأة إلى إسرائيل سنويًا وبيعهن للعمل في مجال الدعارة. وتعمل هؤلاء النسوة 7 أيام في الأسبوع بمعدل يصل إلى 18 ساعة يوميًا ولا يحصلن سوى على 20 شيكل (ما يعادل أربعة دولارات ونصف) من أصل مبلغ 120 شيكل الذي يدفعه الزبون. ويتم الاتجار بهن مقابل أسعار تتراوح بين 8000 إلى 10000 دولار للمرأة الواحدة". [7]

فكما ترى يا ولدي تباع النساء، فلا ينطق لا الإعلام ولا منظمات حقوق الإنسان، ثم تراهم ليل نهار يعارضون الحشمة التي وضعها الإسلام لصون المرأة وحمايتها ويقولون عنها تخلف وإضاعة لحقوق المرأة، وهناك آلاف الأمثلة التي توضح كيف تقوم تلك المنظمات بمساعدة الإعلام بهدم المبادئ والأخلاق بحجة حقوق الإنسان، بينما

تغفل أعينها عن الانتهاكات الحقيقة لحقوق الإنسان والتي تحدث ليل نهار من تجارةٍ بالنساء والأطفال، وقتل للأبرياء وسرقة لثرواتهم.

عز الدين: لكن هناك شيء لم أفهمه يا أبتي، ما معنى الاتجار الجنسي بالنساء وما معنى كلمة الدعارة، لقد قلت لي هذه الكلمة قبل ذلك عدة مرات وفكرت في معناها لكني لم أفهمها؟

نضال يزم بين شفتيه بينما يبتسم ابتسامة من لا يعرف كيف يرد، يفكر قليلًا ثم يقول: ستعرف تلك المعاني فيما بعد يا عز الدين، عندما تكبر قليلًا.

عز الدين: ولما لا أعرفها الآن؟!

نضال: لا تتعبني يا عز الدين قلت لك ستعرفها فيما بعد، فاسمع كلام والدك.

رد عز الدين متعجباً: حاضر يا أبتي.

أكمل نضال: ما أُريدك أن تفهمه من الكلام السابق هو أن أغلب تلك المنظمات سواء حقوقية أو غير ذلك هي تابعة لأصحاب السلطة والمال الذين يديرون العالم، فهم لا يتحركون إلا لرعاية مصالح هؤلاء، ولكي يعطوا لهم الشرعية في فعل جرائمهم ولكي يبثوا الأفكار المغلوطة

والمبادئ الهدامة في شعوب العالم، وهم يستخدمون لذلك شعارات براقة مثل حقوق الإنسان والحرية والتحرر وغيرها من الأشياء التي في ظاهرها الخير حتى يخدعوا السذج من الناس فيبثوا في عقولهم ما يريدون من أفكار ومعلومات تجعلهم عبيد للنظام العالمي الحاكم.

عز الدين: وهل جميع المنظمات الحقوقية تفعل ذلك؟

نضال: بالطبع هناك استثناءات. هناك منظمات بالفعل تعمل على رعاية حقوق الناس والدفاع عنها، بل هناك من يقف ويجابه النظام العالمي مباشرة، لكنهم للأسف استثناءات لا يمكن التعويلُ عليها، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء يعانون الكثير من الضغوط كما يتم التغطية على كلامهم حتى لا يصل إلي الناس. لذا يجب عليك أن تتعامل بحرص مع ما تقوله منظمات حقوق الإنسان، وأن تتحرى ما يقولون، ولا تتبع أبدًا كلام المنظمات الرسمية، حاول أن تسمع الأصوات الغير رسمية في المجال الحقوقي بالذات ففي الغالب لا تخرج الحقيقة إلا من أصوات غير رسمية من أناس عاديون يريدون فضح الظلم والفساد ويحاولون بجهود شخصية فعل ذلك، رغم أنه من الصعب أن تصل إليهم لما قلته لك سابقًا من التعتيم على أصواتهم، لكن هؤلاء هم من يكون معهم الحقيقة في كثير من الأحيان، ولا تأبه إن قيل عنهم مجانين أو فاسدين فكل من يقول الحق يوصم بتلك الصفات، أسمع

كلامهم وحكم عقلك فيه بحيادية حتى تصل لقرار سليم وتعلم أين الحق وأين الباطل.

عز الدين: فهمت يا والدي. لكني لست أفهم كيف ينخدع الناس بهذه السهولة، كيف لا يرون أشياء معلنة وواضحة هذا الوضوح؟!

نضال: سأقول لك كيف يتم خداع الناس بهذه السهولة، ولكن أحمل كرسيك، وتعال ندخل من الشرفة، لأن الشمس أشرقت وصارت مواجهة لعيني وهذا مؤلم. ألا ترى ذلك؟

قام عز الدين ثم حمل كرسيه مثل والده وجلس كلاهما أمام الشرفة من الداخل. وبينما يستوي كل منهما على كرسيّه، إذا بصمود آتية في اتجاههما تحمل في يديها صينية موضوع عليها ثلاثة أكواب من الشاي بالإضافة لطبقين بهما بسكويت مصنوع في البيت، قالت صمود: أحسست أنكما ربما في حاجة إلى هذا.

نضال بفرح: كم أنت عطوفة يا حبيبتي! بالفعل نحن بحاجة إلى البسكويت والشاي.

صمود بابتسامة: لا تكثر من الكلام يا نضال وقم احمل تلك الطاولة وضعها أمامكما حتى أضع عليها الصينية.

قام نضال وحمل الطاولة ووضعها بين كرسيَّه وكرسي عز الدين، وضعت صمود أحد أطباق البسكويت وكوبان من الشاي أمامها، ثم ولت بالصينية متوجهة إلى غرفة المكتب لتعطي الجد هو الآخر كوب شاي وطبق بسكويت، تابعها نضال بعينه حتى طرقت باب الجد ثم دخلت.

قال نضال "بسم الله" وتبعه عز الدين، ثم بدأ كلٌ منهما في التقاط قطع البسكويت وأكلها بعد غمسها في الشاي، بعد أن أكل نضال بعض قطع البسكويت، التقط كوب الشاي الساخن ورشف منه رشفتين بينما كانت تبدو علي وجهه علامات التفكير، ثم وجه نظره إلى عز الدين إشارة منه أنه سوف يستأنف كلامه.

# خداع الجماهير والسيطرة على العقول

نضال: كنتَ قد سألتني يا عزَّ الدين كيف ينخدع الناس بهذه السهولة، في الواقع هذا هو الطبيعي، الناس يا ولدي في المجمل لا يبنون قراراتهم أو اعتقاداتهم على المنطق وإنما على العاطفة وعلى المعتقدات والأوهام والمخاوف والنزوات المحفورة في نفوسهم. لذا فمن يستطيع فهم المعتقدات والأوهام والمخاوف والنزوات لمجموعة ما فهو يستطيع أن يطوعها لإقناعهم بما يريد، مهما كان هذا في غاية السخافة وفي غاية اللامنطقية .

عز الدين: امممم، تعني كل الناس حتى المثقفين منهم، حتى أنت يا والدي؟

نضال: للأسف.. كل الناس معرضون للخداع مهما بلغوا من الثقافة والفهم، لكن بالطبع هناك تفاوت في قدرة المرء على التغلب على موجات الخداع.

عز الدين: وكيف نصبح محصنين ضد موجات الخداع تلك؟

نضال: أولا: أن تعتصم بكتاب الله وسنة رسوله، فمن اعتصم بهما لن يضل أبدًا، ثانيًا: أن تتعلم وتعرف أكبر قدر

ممكن من المعلومات فكلما علمت أكثر كلما تحررت أكثر، كلما صرت أكثر مقاومة للخداع، وحتى إن خُدعت ستدرك ذلك الخداع بسرعة أكبر ممن حولك، فقط إن وضعت الحق هدفًا وكنت أكثر علمًا ممن حولك، ثالثا: أن تفهم أساليب المخادعين جيدًا، فمن عرف لغة قوم أمن مكرهم.

عز الدين: وما هي أساليب المخادعين يا والدي؟

نضال: إن العواطف الكامنة -يا عز الدين- هي التي تتحكم في الناس أكثر من المنطق، في الماضي لم يكن يدرك ذلك الأمر إلا مجموعة من الناس الموهوبين، هؤلاء هم القادة المحركون، هؤلاء الناس هم من استطاعوا تغير العالم وصنع إنجازات هائلة وعلامات في التاريخ. مِن هؤلاء الناس مَن استخدم ذلك الأمر في الخير مثل الأنبياء، الذين استخدموا ذلك الأمر في إرشاد الناس وتنويريهم، ومنهم من استخدمه في الشر أمثال هولاكو ونابليون وغيره من الغزاة الذين حركوا الطاقة البشرية واستخدموها للنهب والقتل والتدمير .

المشكلة أن الأمر الآن صار أكثر تعقيدًا، فالتلاعب بعواطف الناس لم يصبح مقصورًا على هؤلاء القادة المحركون، بل صار علمًا ودراسة، وصار هناك مجموعة كبيرة من الناس يدركون جيدًا كيفية التلاعب بمشاعر الناس وتوجيههم

للإيمان بأكثر الأشياء حقارة وأبعدها عن المنطق، صار من الممكن بسهولة قلب المفاهيم وتبديل الحقائق ودفع الناس إلى أكثر الأماكن بعدًا عن غاياتهم الحقيقة، ظانين أنهم يسرعون الخطى تجاه أهدافهم.

بدأ الأمر عندما نشر غوستاف لوبون كتابه سيكولوجية الجماهير، وسألخص لك فكرة الكتاب لكن اعلم أن الأمر الآن صار أكثر خطورة جدا مما ذكر لوبون في كتابه، لكن لكي تفهم الحال الآن يجب أن تفهم أولاً مبادئ لوبون للسيطرة على الناس.

في البداية يُعرف لوبون مصطلح الجماهير فيقول، أن الجمهور هو مجموعة من الناس انصهرت مع بعضها في كيان واحد بسبب حدث ما أو إثارة فكرة ما. وقال إنه بمجرد تكون ذلك الكيان تتلاشى الشخصية الواعية للفرد المنخرط في الجمهور، وتهيمن شخصية لا واعية يتشارك فيها جميع أفراد الجمهور بغض النظر عن مستواهم الثقافي أو العلمي، ويصبح ذلك الكيان الناشئ من السهل توجيهه إلى مسار واحد بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، يفقد الفرد المنخرط في الجمهور القدرة على التفكير المنطقي ويصبح في حالة انقياد كامل للأفكار المحرض عليها فيميل لتنفيذها بشكل مباشر وبدون أي تردد أو تفكير .

تُلاحظ ذلك، يا بُني، في مباريات كرة القدم، فإنك لا يمكن أن تميز بين الطبيب والعامل في تجمع مثل هذا، إذا قال أحد الحضور هتاف وجدت الجميع يردد ذلك الهتاف حتى بدون أن يفهم معناه، وفي التجمعات مثل التظاهرات، تجد الناس فجأة اتجهوا إلى سيارة وقاموا بتكسيرها، لان أحد أفراد المجموعة قال إن راكب هذه السيارة هو من أعداء الشعب أو من الفاسدين، ولا يحاول أي واحد من هذه المجموعة أن يتثبت من الكلام وإنما يندفع بعفوية للتنفيذ .

ويقول لوبون مفسرًا ذلك السلوك الغريب: "هناك أسباب عديدة تتحكم بظهور الصفات الخاصة بالجماهير وأولها هو أن الفرد المنطوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع فقط شعورًا عارمًا بالقوة، وهذا ما يتيح له الانصياع إلى بعض الغرائز ولولا هذا الشعور لما انصاع، وهو ينصاع لها عن طوع واختيار لأن الجمهور مُغفل بطبيعته وبالتالي فهو غير مسؤول. وبما أن الحس بالمسؤولية هو الذي يردع الأفراد فانه يختفي في مثل هذه الحالة كليًا" [8]

ويقول لوبون أن الجمهور وحتى وإن كانوا جميعًا من العلماء يفقد كل أفراده ملكة الملاحظة والروح النقدية، ويصبحون منقادين بشكل كامل للأوهام والمخاوف الكامنة داخلهم، فيسهل تحريضهم ودفعهم لأي اتجاه. وقد بدا ذلك

جليًا، يا عز الدين، في ألمانيا النازية حين انصاع الجميع تقريبًا لفكرة النازية حتى أن الكثير من المفكرين والفلاسفة هناك آمنوا بالفكرة وسخروا كل جهودهم لتطبيقها، رغم سخافتها وبعدها عن المنطق.

إذًا يا بني، الخطوة الأولى لتسيطر على مجموعة من الناس هو أن تحولهم لجمهور، أي لكيان واحد منصهر، وذلك يكون سهلًا جدًا في أوقات الكوارث والصدمات والأحداث المفاجئة الغير مفهومة، لأن الأفراد في تلك الأوقات بسبب الذعر والرجَّة الداخلية، يفقدون كثيرًا من قدرتهم على التفكير النقدي ويصبحون أكثر ميلًا للانخراط في جمهور. لذا ففي كثير من الأحيان تُختلق الكوارث، لإحداث ذلك الاضطراب اللحظي الذي يؤدي لتكون الجمهور، بعد ذلك يبدأ الساسة في تحريك الناس وإقناعهم بأي شيء بسهولة جدًا.

يقول لوبون: "لكي نقنع الجماهير ينبغي أولًا أن نفهم العواطف الجياشة في صدورها وأن نتظاهر بأننا نشاطرهم إياها ثم نحاول بعدئذ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرضة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء". [8]

بعد تكون كيان الجمهور لا يصبح للمنطق أي معنى عنده، هو فقط يحتاج إلى من يحرضه بطريقة مباشرة وباستخدام كلمات بسيطة تتوافق مع مخاوفه وأوهامه في تلك اللحظة، بهذه الطريقة يمكن أن تحرض الجمهور لارتكاب أشنع الأفعال، أو لصنع أكثر الأشياء نبلًا .

عز الدين: لكن يا والدي لقد مثلت على كلامك عن الجمهور، بمشجعي فريق، أو بمجموعة في مظاهرة، هؤلاء الناس موجودون في مكان واحد، يدفعهم هدف مشترك، لذا فمن المنطقي أن يكونوا عُرضة لكي يتحولوا إلى ذلك الكيان الغير عاقل، رغم أني لا زلت لا أفهم كيف يفقد المرء عقله بتلك الطريقة، لكن حتى لو كان هذا الكلام حقيقي، فهو سيكون مقتصرًا على مجموعة من الناس مجتمعة في مكان واحد تربطها روابط مشتركة، لكن ما الذي سيجعل الناس في البلدان العربية يتأثروا بما تقوله أمريكا مثلًا، كيف يمكن الجمع بينهم بأي طريقة ليكون هناك جمهورًا يمكن توجيهه؟

نضال ينظر نظرة اندهاش ويسكت برهةً ثم يضع يده على كتف ابنه ثم يقول: نفع الله بك يا بني وجعلك نصرًا لأمتك وللحق، سؤالك رائع!

يحرص نضال دائمًا أن يشجع عز الدين كلما بدر منه أي فعل أو قول حسن.

تابع: أولًا، عن كيفية فقدان الناس عقولهم عند تواجدهم في مجموعات، فالأمر ليس له تفسير عقلاني محدد لكن هذا ما يحدث بالفعل.. فإذا كنت في مكان ما وحولك مجموعة من الناس ثم وجدت فجأة أن هؤلاء الناس قد أصابهم الذعر، وجرو في اتجاه ما، ستجد أنك قد أنتقل إليك هذا الذعر ووجدت نفسك بشكل لا إرادي غير قادر على الوقوف في مكانك، ستجد قوة داخلية تدفعك للجري مثلهم، لا يوجد بشري لا يحدث له ذلك، يسمى هذا السلوك ضغط المجموعة أو نظرية القطيع، الأمر ربما غير عقلاني لكنها الحقيقة. لذا يا ولدي يجب أن تعود نفسك على هذه الأسئلة، اسألها لنفسك في كل فعل تقدم عليه، إذا دربت نفسك على هذه الأسئلة وقتها تستطيع أن تخرج من تلك الغفوة قبل فوات الأوان، أسأل نفسك في أي فعل تقدم عليه، ما الهدف من هذا الفعل؟ هل ما أفعله هذا منطقي؟ هل هو مخالف للإسلام أم متفق معه؟

ليس مشكلة أن تقع في وقت ما تحت تأثير ضغط المجموعة المشكلة أن تظل محبوسًا داخل ذلك السجن لفترة طويلة، فوقت أن تفيق ربما تجد نفسك قد ارتكبت أشياء ما كنت أبدًا تصدق أنك من الممكن أن تفعلها .

عز الدين: لكن أظن أنه لو حدث وجرى بعض الناس أمامي بذعر فإني وإن جريت معهم لن أظل أجري معهم كثيرًا، بل

سأنتبه إن لم يحدث شيء وسأقف، هذا حتى بدون أن أسأل نفسي أي سؤال من هذه الأسئلة.

نضال: كلامك سليم جدًا.. وهذا لأن هؤلاء الناس لا يربطك بهم رابط، ولا تشكل أنت معهم فرد من جمهور، لذا يكون التأثير لحظي وسرعان ما يختفي، لكن لو كان الأمر مباراة كرة قدم سيختلف الأمر جدًا، وستجد أن الجمهور يقوم بنفس الأفعال وكأنهم جسد واحد، يهتفون نفس الهتاف يتحركون نفس الحركات، ينفعلون في نفس اللحظة يسبون اللعابين في نفس الوقت، يهدؤون فجأة جميعًا ثم يهتاجون فجأة جميعًا، هذا لأنهم يشكلون كيان جمهور، يظل الأمر هكذا طالما كانت المباراة جارية، إذا انتهت عاد كل واحد لحالته العادية الفردية .

المشكلة تحدث عندما يكون حالة الجمهور تلك مصنوعة من قبل أحد الأفراد الذي يرغب في السيطرة على مجموعة من الناس، فإنه سيبذل جهده حتى يظل هؤلاء الناس في حالة الجمهور تلك لا يخرجون منها وبالتالي يظل هؤلاء تحت سيطرة تحريضاته، كما يحدث مع الجيوش أو الشعوب بشكل عام في حالة الحرب.. فإن القادة يستطيعون عن طريق إثارة المخاوف من العدو أن يجمعوا جميع الشعب تحت راية واحدة، فيصبح الشعب بشكل عام أو الجيش بشكل خاص كيان واحد ينطبق عليه كل أحوال الجمهور،

والقائد المتمكن هو الذي يستطيع الحفاظ على تلك الحالة طوال الفترة المطلوبة، لأن تلك الحالة تضمن له عدم التمرد من أحد الأفراد أو المجموعات، كما تضمن له طاعة كبيرة لأوامره، كما أن حالة الجمهور تصاحبها شجاعة عظيمة للأفراد داخل الجمهور، وذلك نابع من إحساسهم الكبير بالقوة، والرغبة العارمة في التضحية من أجل الكيان الذي ينتمون إليه، وتلك الشجاعة والرغبة في التضحية لها أسباب كثيرة، وهي تعتمد على الطريقة الذي استخدمها القائد لاستحضار حالة الجمهور.

عز الدين: فهمت الآن.

نضال: إذًا نجيب على سؤالك الثاني، كيف من الممكن أن تأثر على أفراد بعيدين عنك، من السهل أن تأثر على أفراد مجتمعين في مكان واحد صغير، كمشجعين في ملعبِ كرة أو جنود في جيش، أو أهل قرية صغيرة، لكن كيف تؤثِّرُ على أناس يبعدون عنك آلاف الأميال، فيصبحوا أفرادًا في جمهور، ربما دون أن يعرِف أحد من أفراد هذا الجمهور الآخر؟ !

جوستاف لوبون وضع أساس سيكولوجية الجماهير لكن الأمر تطور بشدة بعده في الواقع، هو لم يقل شيء يرد على سؤالك هذا سوى أنه لم يشترط لتكون جمهور ما أن

يجتمعوا جميعًا في مكان واحد، كما لم يشترط أن يكون لأفراد هذا الجمهور نفس الاتجاهات أو نفس الخلفيات الفكرية أو حتى نفس العقائد، فقط اشترط أن يوجد شيء ما أو حدث يكون من الشدة والأهمية بحيث يجمع هذا الجمهور حوله، وسيكون كل أفراد الجمهور كيان واحد طالما هذا الحدث أو هذا الشيء فعال أو موجود، فإذا انقطع هذا الحدث أو هذا الشيء عاد كل فرد لوضعيته الفردية.  وقال لوبون أيضًا أن حالة الجمهور تلك معدية، فمن الممكن مثلًا أن يحدث تجمع لجمهور في مكان ما لهدف ما، حتى إذا سمع عنه أناس في مكان آخر تحولوا هم أيضًا لجمهور وأخذوا يتحركون لنفس الهدف .

هذين الأمرين الذين ذكرهما لوبون في الواقع موجودين منذ وجود البشر، سأشرحهما لك ثم نبدأ نتحدث عن التطور الحادث حاليًا في شأن تكوين الجماهير والسيطرة على الناس .

فللتدليل على الأمر، الأول وهو عدم اشتراط أن يكون هناك رابط عقائدي أو فكري بين أفراد الجمهور، وعدم اشتراط أن يجتمعوا جميعًا في مكان واحد.. فالثورات تشكل خير مثال على ذلك، فعندما يقوم شعب بثورة ضد حاكم لظلمه واستبداده.. الأمر يبدأ بشرارة يكونها مجموعة قليلة من الناس ثم لوجود الظروف المناسبة لانتشار تلك الشرارة،

كالمقت العام على نظام الحكم، تبدأ تلك الشرارة في الانتشار، ثم تتجمع بعد ذلك طوائف مختلفة من هذا الشعب تحت مظلة واحدة وهي إزاحة ذلك النظام الجائر، إذا حللت مكونات هذا الجمهور، يا عز الدين، ربما تجد مجموعات أبعد ما يكونون عن الترابط الفكري، ربما هم قبل ذلك الحدث كانوا أعداءً، لكن بمجرد نشوب ذلك الحدث، تجدهم صاروا وبشكل غريب في قمة الصداقة، بل إنك قد تجد أحد أفراد تلك المجموعة يضحي بنفسه لإنقاذ فرد من المجموعة الأخرى، حتى أنك تعجب كيف كانوا أعداء يومًا .

فجميعهم تجمعوا الآن على هدف إزاحة هذا النظام وصاروا كيانًا جمهوريًا واحدًا. لكن بمجرد أن يتحقق هذا الهدف يذهب الرابط بينهم، فيعود الصراع بينهم أشد مما كان قبل تلك الثورة، حتى أنك تعجب كيف كان الواحد منهم يضحى بنفسه لحماية الآخر خلال الثورة .

عز الدين: هذا ما حدث في ثورة يناير، أليس كذلك يا أبي؟

ضحك نضال ضحكة يملأها الحسرة وشخصت عيناه قليلًا سارحًا في شيء ما، وكأنه ذكر ذكرى مؤلمة جدًا، أفاق من سرحانه بعد برهة ثم قال: هذا مثال جيد يا عز الدين .

تابع: والثورات نفسها تشكل مثالًا جيدًا على فكرة العدوى، فطالما اشترك أهل إقليم ما في نفس ظروف الظلم، فإنه إن

قامت ثورة في أحد أجزاء ذلك الإقليم فإنها سرعان ما تُعدي بقية أجزاء الأقاليم، وتكون سرعة تلك العدوى هي نفس سرعة انتقال المعلومات عن تلك الثورة، كلما كانت المعلومات أسرع انتشارًا كلما كانت الثورة أسرع انتشارًا. بل إنه ربما ينتشر خارج الإقليم نفسه فيعدي أقاليم مجاورة، فتتحول إلى جماهير تستهدف نفس الأهداف التي استهدفها الجمهور الأول. وأفضل مثال على ذلك هي الثورة الفرنسية، فبمجرد اشتعالها في العاصمة الفرنسية سرعان ما انتقلت إلى بقية أجزاء فرنسا، ثم بعد نجاحها بدأت تنتقل إلى دول أخرى في أوروبا بأسلوب العدوى .

وقد كانت الثورة الفرنسية أيضًا مثالًا واضحًا لمدى اللاعقلانية التي من الممكن أن يصل إليها الجمهور، وكيف من الممكن أن يرتكب الأفراد وهم في هذه الحالة أبشع الجرائم وأحقر الأفعال.

صوت صمود: هيا لقد حضرت الإفطار تعالوا ضعوه على السفرة.. لن أفعل كل شيء وحدي.

نضال بضحك: أظن أن هذا كافٍ لليوم، نكمل الأسبوع القادم بمشيئة الله.

عز الدين: لكنك لم تكمل الإجابة على سؤالي.

نضال: سنكمِلُه الأسبوع القادم إن شاء الله، هيا حتى لا تغضب أمك، ثم أني أشعر بالجوع، كما أني تعبت، فقد تكلمنا كثيرًا اليوم. هيا !

## الخرافة

خرج الجد مع نضال وعز الدين إلى صيد الأسماك بعد صلاة الجمعة، جلس عز الدين على كرسيه الصغير إلى جانب جده، بينما جلس نضال على بعد عدة أمتار، رمى ثلاثتهم سناراتهم، وجلسوا يتبادلون الحديث بينما يقومون بالصيد، غمزت سنارة عز الدين فشد السنارة بتسرعٍ ولهفةٍ فسقطت السمكة، أحس عز الدين بالغيظ بينما ضحكً الجد ونضال مما فعل، قال الجد لعز الدين أن التسرع يجعلك تخسر ما كسبت، فأهدأ ولا تتسرع وستصبح صيادًا ماهرًا إن شاء الله، بعد قليل غمزت سنارة عز الدين مرة أخرى، فشد السنارة برفق واستطاع أن يخرج السمكة أمسك بها، وأخذ يقفز بفرح وهو يقول: اصطدتها اصطدتها! قال الجد: أحسنت يا عز الدين، الآن ضعها في صندوق السمك. وقبل أن يلقي عز الدين سنارته مرة أخرى مرت امرأتان كانتا تتناشدان نداء لم يفهمه عز الدين، كانتا تقولان: "أبين زِينْ أُبيِّن، وأضرب الود ع وأشوف." كان صوتهما عزب، أُعجب بهِ عز الدين، لكنه استغرب لما رأى أنه قد بدت على

الجد وعلى نضال علامات حزن، قام نضال إليهما وناداهما فجاءتا، قال لهما نضال برفق: عماتي إن ما تقومان به هذا حرام، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا"، هذا من جاء إليهما فما بالك بذنب العراف نفسه .

ردت إحداهما: يا ولدي هذه عادتنا وتقاليدنا نحن نفعل ذلك منذ سنين، وأجدادنا كانوا يفعلون ذلك، نحن لا نضر أحدًا ولا نخدع أحدًا، ثم إننا نتكسب الرزق من هذا .

نضال: يا عمتي وهل عادتنا وتقاليدنا أهم من الدين!

ردت: لا، لكن...

قاطعها نضال: أما عن الرزق فهو بيد الله، سيرزقكم من حلال إن استعنتما به وتركتما هذا الفعل ابتغاء وجهه.. وأنا سأساعدكما على إيجاد عمل شريف إن أردتما ذلك. أخرج نضال من جيبه بطاقة ورقية مدون عليها اسمه ورقم تليفونه وقال لهما: هذا رقم تليفوني اتصلا بي بعد يومين، سأكون قد وجدت لكما عمل إن شاء الله.

ابتسمتا ثم شكراه وقالتا إنهما سوف يفكرا فيما قاله لهما، أخذتا البطاقة ثم غادرتا .

التفت نضال ونظر إلى الجد وتبادلا البسمة، ثم عاد نضال إلى مكانه وجلس يصطاد مرة أخرى. كان عز الدين مستغربٌ جدًّا مما حدث؛ ما الحرامُ فيما قالاه؟! وما عملهما هذا أصلاً؟ سأل عز الدين الجد عن ذلك فرد الجد بعد أن جلس على كرسي الصيد ورمى طرف سنارته في الماء وقال: ما كان يفعله هاتان المرأتان يسمى دجلًا، فهؤلاء الناس يدَّعون علمهم للمستقبل وللغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، فهم يكذبون على الناس ويقنعوهم أنهم سوف يخبروهم عن مستقبلهم ثم يأخذون منهم أموالًا على هذا الكذب الذي لا معنى ولا قيمة له .

ربما هاتان السيدتان وأمثالهم جهلة يظنون أنهم يقومون بعمل فلكلوري يسعد السامعين، ولا يقصدون خداع الناس، ويفعلون ذلك لكسب بعض المال لسبب ضيق عيش أو فقر، لكن هناك من يمتهن مهنة الدجل هذه ويجني منها الآلاف عن طريق استغلال جهلِ الناس وغيابِ الدين فيهم، ووعدهم بحل مشاكلهم .

عز الدين: وهل يصدق كثير من الناس هذا الهراء؟!

الجد يضحك ضحكة ساخرة ثم يقول: لم تكن مصرُ أبدًا يا عز الدين مكانًا خاليًا من الخرافات، لكنها على العكس كانت منذ فجر التاريخ محطًّا للخرافات، فمصر ليست فقط أم

الدنيا في الحضارة لكنها أيضًا أم الدنيا في الدجل واللامعقول. منذ أن كان الكهنة يؤلهون الملوك ويدَّعون التحكم في أقدار الناس، إلى وقتنا هذا، فالوضع لم يتغير، ظل إيمان الناس بالدجل والسحر كما هو، كأن حب الإنسان في أن ينخدع، هي غريزة متجذرة في النفس البشرية.

وفي مصر لا فرق في الخرافة بين متعلم وأميّ، أو فلاح وأرستقراطيّ، فالإيمان بالخرافة أصبح متأصلًا في جسد الثقافة المصرية يسري في دمه. والخرافة التي أحدثك عنها الآن يا ولدي هي الخرافة القديمة التقليدية، تعجب عندما تلاحظ كم هي منتشرة في كل أوصال المجتمع، رغم التطور العلمي الحادث، وتعجب أكثر عندما تجد من يدَّعون الثقافة يستشهدون بها ويستدلون عليها، وإذا نظرت إلى الإحصائيات ستعلم كيف الوضع مفجع ويدعو للتندُّرِ به.

قد كشفت دراسة أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية منذ سنوات أن المصريين ينفقون نحو عشرة مليارات جنيهًا سنويًا على السحر والدجل، وأن نصف السيدات المصريات تقريبًا يعتقدن في السحر والدجل، وربما يترددن على الدجالين، وأن عدد الدجالين في مصر تزايد لدرجة أن الدراسة أوضحت أن هناك دجالًا لكل 120 مصريًّا. فهناك ثلاثمائة ألف شخص يدَّعون العلاج بتحضير الجن والأرواح، وثلاثمائة ألف مثلهم يدعون العلاج بالقرآن

وبالكتاب المقدس، أضف إلى ذلك ما يقرب من ربع مليون دجال يمارسون الشعوذة والدجل على أرض مصر، ورصدت الدراسة أن القاهرة تحتل المركز الأول في عدد الدجالين في مصر، كما رصدت أن أعداد الدجالين يزيد في الأحياء الشعبية أمثال الشرابية والسيدة زينب، ويقل في الأحياء الأرستقراطية أو ربما ينعدم في أحياء مثل الزمالك. لكن عدم وجود الدجالين في الأحياء الأرستقراطية لا يعني أن هناك تقسيمًا طائفيًا بين من يؤمنون بالدجل، بل الوضع على العكس ربما يكون الإيمان بالدجل في الأحياء الأرستقراطية أكبر، لكن نتيجة للأوضاع الاجتماعية والأمنية، لا يتمركز الدجالون في مثل هذه الأماكن، بمعنى أن سكان هذه الأحياء هم من يذهبون إلى الدجالين في الأحياء الشعبية بأنفسهم. [9]

بل إن هناك كثير من الروايات تأكد أن كثيرًا ممن يعتبرهم المجتمع من المثقفين والمشاهير في الرياضة والفن والسياسة من رواد الدَجَل، هذه الروايات جاءت كاعترافات على لسان بعضهم.

فصرح الخرافة الشامخ -يا ولدي- أحاط بكل زوايا مجتمعنا، فلم يفرق بين مستوى اجتماعي وآخر، أو بين مدنيّ و ريفيّ، فربما الإيمان بالخرافة هو الشيء الوحيد الذي تحققت فيه المساواة فعليًا في مصر. بل إن الإعلام الذي

يدَّعي أهله أنهم مصابيح لتنوير العقول، تجده يسوق وينشر هذا الدجل القديم، فتجد برامج تستضيف من يقرأ الطالع، وبرامج مخصصة للأبراج، بل إن هناك بنداً في كل الصحف مخصصًا لما يسمى علم الفلك والأبراج، بل إن هناك برامج كثيرة الشيوع الآن متخصصة في استضافة من يدعون إخراج الجن من أجساد بعض المتخلفين حضاريًّا، بل إن هناك مشايخ يخرجون الجن على الهواء عن طريق التليفون، وتجد من يتمرغ في أرض الأستوديو ويصرخ، ثم ينطق أحد الدجالين بكلمات هي الحل الشافي لهذا العليل، تخرج من جسده الجني الشرير.

هذا لا يدعو للسخرية والاشمئزاز يا ولدي، أكثر من الشغف الذي تجده لمشاهدة هذه البرامج من كل الأوساط، وهذا يدعو لزيادة مثل هذه البرامج، فكل ما يهم ممولي الفضائيات هو زيادة ساعات المشاهدة، والخرافة لها سوق رائع في الحقيقة.

والخرافة هي المعتقد اللاعقلاني، لكننا كعادتنا نزين المعاني، فتارة نطلق عليها علم التنجيم، وأخرى علم الفلك، وتارة حكمة القدماء، وربما نلبسها لباسًا دينيا فنقول الحسد والسحر، وللمصريين في الحسد عادات ومعتقدات غاية في الغرابة، فيعتقد البعض أن الحسد يكون أكثر تأثيرًا إذا كان مصحوبًا بشهقة، وأن الحسود عيناه دائرية وصفراء،

ويزعمون أن هناك أشياء تقي من الحسد أو السحر، مثل الأحجبة والعدسة الزرقاء والخمسة وخميسه، ولهم بعض الكلمات التي يتمتمون بها حتى يقوا أنفسهم هذا الشر العظيم، مثل "حابس حابس من حجر يابس، وشهاب قابس، اللهم إني رددت عين العائِن عليه، وعلى أحب الناس إليه، وفي كبده وكليتيه، ولحمه ودمه، فارجع البصر." أضف إلى ذلك الطرق العتيقة والمبتكرة للوقاية من الحسد مثل البخور وخرم العروسة الورق بالدبابيس وغيرها. [10]

كان عز الدين يستمع لكلام جده بانتباه شديد، كأنه يحكي له قصة خيالية شديدة الغرابة. أكمل الجد قائلًا: والخرافة يا عز الدين تدخل في مصر تقريبًا في كل جوانب الحياة، فتجد الناس يتحاشون ضرب القطط والكلاب ليلًا لأنهم يعتقدون أن الجن يتشكل بصورها، كما أن الجن في اعتقادهم يسكن البيوت المهجورة والقبور، والبيت الذي قتل فيه قتيل فإن روحه تسكنها وتنتقم من كل من يحاول أن يعيش في هذا البيت، وبالمناسبة فهناك أفلام تسجيلية مصرية ترسخ لهذه الخرافة، مثل فيلم "حارة الأربعين"... ذلك الفيلم كنت قد رأيته بالصدفة على أحد قنوات التلفزيون المصري، وهذا الفيلم يحكي قصة حارة من يصل سن الأربعين فيها تخطفه الأرواح التي تسكن هذه الحارة في يوم ميلاده، ويستيقظ الناس فلا يجدون له أثرًا. أما زواج الإنس والجن فهي

خرافة عظيمة الشيوع، بل إن هناك مواقع إلكترونية وبرامج تلفزيونية تدعم هذه الخرافة، وتروج لإثبات حدوثها .

أضف إلى ذلك بعض الكتيبات المنتشرة مع باعة الكتب الجائلين وبائعي البخور مثل "السر الرباني في العلم الروحاني"، و"شموس الأنوار وكنوز الأسفار"، و"البهجة اللماعة في تسخير ملوك الجن في الوقت والساعة" وغيرها. [10]

والعلاج بالخرافة يدخل في كثير من الأشياء؛ فمن "كودية الزار" التي تستخدم في إخراج الجان ممن يسمون "بالملبوسين" إلى الأحجبة التي تستخدم في عدة أغراض، مثل الحماية من المرض ومن العفاريت، والربط الذي يسبب العجز الجنسي، واستمالة قلب أحد الأشخاص للزواج. أضف إلى ذلك حماية الأطفال عن طريق تعليق الكف على صدورهم أو العدسة الزرقاء والخلاخيل أو خرم آذانهم، ومن الأمور المضحكة أن هناك بعض الأمهات تسمي أبناءها بأسماء بنات أو أسماء سيئة، مثل شحات وخيشة وجعران، اعتقادًا منها أن ذلك الاسم سيحرسه من الموت. [10]

بينما يحرك عز الدين عصا السنارة يمينًا ويسارًا ويراقب التموجات الصغيرة الناتجة عن حركة خيط السنارة في الماء قال: وهل الدجل والخرافة موجود في مصر فقط يا جدي؟

الجد: بالطبع لا يا ولدي، فلا توجد بقعة على الأرض تخلوا من الدجل والخرافة، لكني تكلمت عن مصر لأنها المكان الذي نعيش فيه.

عز الدين: هل يوجد أنواع أخرى للدجل وخداع الناس غير هذا يا جدي؟

كل ما ذكرته سابقًا -يا ولدي- هو من قبيل الدجل التقليدي القديم، لكن هناك أيضًا الدجل المتطور الحديث، الذي يرتدي الملابس الأنيقة ويتكلم كلامًا منمقًا. الدجل الذي يدخل كل البيوت ولا يستطيع أحد أن يسميه دجلًا، بل إن العاملين عليه يصبحون مشاهير ويقال عنهم أنهم نخبة، الدجل الأخطر الذي ينخر في عقول الناس الجهل والخرافات والتغيب، رغم أنه يدعي أنه مصدر التثقيف والتنوير، الذي يرسخ عرش المستبدين، ويحول البريء إلى مجرم، والمجرم إلى حمل وديع، الدجل الذي يميع الحقائق فيفقدها قوتها، ويزين الكذب فليبسه رداء الصدق.

رفع عز الدين بصره الذي كان مركزًا على طرف السنارة ونظر إلى جد ثم قال: ما هو هذا الدجل يا جدي؟!

ابتسم الجد وربت على كتف حفيده ثم رد: إذا أردت معرفة هذا الدجل فأهلًا بك في مملكة الدجل الحديث، الدجل الأنيق اللامع "دجل الشاشة والقلم". فهذا الدجل لا يقتصر على دعم الخرافات القديمة ونشرها، فإنه يدعم كل وسائل التغييب، فهو يتكسب قوته منها. ودائمًا -يا بني- يدعي المشتغلون بالإعلام أن الإعلام هو أداة توصيل الحقيقة، ونشر المعرفة، لكن الحقيقة عكس ذلك.

يسمع نضال هذا الكلام من أبيه بابتسامة، فهو كان على وشك أن يحدث ابنه عنه في الصباح لولا نداءُ صمود.

يكمل الجد: لم تكن أبدًا آلة الإعلام من وقت أن أُنشئت غرضها هو توصيل الحقيقة، كان هذا مجرد غرض ظاهري كاذب، بل كان غرضها دائمًا هو التوجيه، التوجيه تجاه مصلحة من يدفع أو من يملك. أن تظن أن هناك مؤسسة إعلامية ليس لها أجندة تطبقها فأنت مخدوع، أن تبني مواقفك طبقًا لمعلومات إعلامية، فأنت مُضَلّل. لم يُنشأ الإعلامُ ليعلِّمَك ولكنه أُنشئ ليخدعك.

إن العالم الذي نحيا فيه الآن ما هو إلا عالم افتراضي ممتلئ بالأكاذيب، لا تكاد تسمع خبرًا يخلو من تشويه أو توجيه أو تضخيم أو تصغير أو تركيب أو قص، وهذه هي أنواع الكذب الإعلامي، أو ما أسميه الدجل الحديث. ربما قليل من

التفكير والتثبت من المعلومات التي تنتقل إلى آذاننا عبر الهواء أو الأوراق، ربما يدفعنا هذا للكفر بكل ما نسمع أو نرى أو نقرأ. تتبدل المواقف -يا ولدي- حسب الظروف والأحوال، بل يتغير الكلام جذريًا من عهد إلى عهد، وربما تباع العقيدة في طور تغيير الجلد، أنت لست إلا فريسة لأفواههم وأقلامهم، تثق بهم بينما هم يُغطُّون عينيك ليسمحوا لسيدهم أن يطعنك بدون مقاومة، إن الدجل الحديث هو الوسيلة الأولى لتغييب الشعوب، ونشر الاستبداد، ونهب الثروات. أنشئ فتنة وصراعًا من لا شيء، اتركهم خائفين متربصين لبعضهم، سيصبرون على ظلمي واستبدادي خوفًا من بعضهم، وطلبا للاستقرار والأمن. لأنك ستظهرني في مظهر الحامي الذي يوقف المؤامرات، فليسامحوني إن سلبت حريتهم، فإني لا أفعل ذلك إلا لأحميهم من أنفسهم، لأنهم أطفال أو قُصُرٌ لا يفهمون شيئًا، وسيفسدون حياتهم إن لم أحكمهم بهذه الطريقة...

إن الدجل الحديث -يا عز الدين- هو نوع جديد من الدجل، وخطره أنه لم يصنف على أنه دجل، وهو يصل إليك أينما كنت، أسلحته متعددة لا تكاد تميزها أو تتعرف عليها، فهي تأتيك في ثوب أنيق، ربما تلبس ثياب الوطنية أو الدين أو العاطفة، أو غيرها من الأمور التي إذا اختلفت عليها، يسهل

عليهم وصمك بالخيانة أو العمالة، واعلم أن الكثيرين سيصدقون هذا .

تبدوا على الجد علامات الحسرة ثم يشيح رأسه عن عز الدين وينظر إلى ماء النهر بشرود، كأنه يتذكر موقف ما قد حدث له في الماضي، يسكت برهة ثم يلتفت مرة أخرى لعز الدين ويكمل: هذا الدجل سيطولك سيطولك، يا ولدي، فاحذر أن يصيبك أحد سهامه، فربما لا تكاد تفيق إلا وأنت هالك. إن السبب الرئيسي لانتشار الدجل بنوعيه في وطننا هو الجهل، وتعريف الجهل في نظري هو "أن تبيع عقلك لغيرك"، فلا تكاد تميز بين الحق والباطل، والخيال والواقع، والمزيف والأصيل.

فإياك أن تبيع عقلك يا عز الدين، إياك يا ولدي، فلا شيء يساوي عقلك، عقلك هو ما يجعلك منك إنسانًا.

قال الجد آخر جملة وهو يملس على رأس حفيده وبعد أن أنهاها سكت ووجه نظره ناحية الماء. أما عز الدين فقد سمع كلام جده وخلطه مع كلام أبيه في الصباح، يبدو أن أبوه وجده متفقون على أن الناس من السهل خداعهم، وأن هناك عدد كبير من الناس يهيمون تحت أغلفة من الجهل وتصديق الا معقول، عز الدين الآن ينتظر كلام أبيه في

الجمعة القادمة بشوق كبير، فمن المفترض أن يحدثه عن أساليب الخداع الحديث، أو كما يسميها جده الدجل الحديث.

بعد أن أنهوا الصيد، وهم في طريق العودة، سأل عز الدين الجد عن الأمسية الثقافية لكنه أجابه أنها قد ألغيت اليوم، لأنهم سوف يعقدون ندوة في الغد السبت لافتتاح نادي يتبع المسجد يهدف للحفاظ على اللغة العربية والثقافة العربية، وقال الجد أن الشباب صار لا يهتم بلغتهم وصار ينظر إليها على أنها مجرد تراث أو أثر قديم لا قيمة له، لذا فقد اقترح على إمام المسجد إنشاء ذلك النادي، حتى يُنشر من خلاله جمال اللغة العربية وأهميتها، وقال الجد لعز الدين أنه بعد تجهيز وعصف ذهني واجتماعات مع أهل الفكر في البلدة قد قُرر أن يكون افتتاح هذا النادي في الغد. وقد طلب عز الدين من الجد أن يحضر هذه الافتتاحية فوافق الجد أن يصحبه معه إليها. وعرض عز الدين الأمر على أمه فوافقت أن تحضر هي الأخرى، ورحبت بالفكرة جدا وشكرت الجد على مجهوده هذا في راعية الثقافة في بلدته، ونشر الوعي بين أبناءها. ونضال أيضا سيحضر، فقد كان قد دعاه إمام المسجد للحضور بعد انتهاء صلاة الجمعة.

# الحضارة في مقابل الثقافة

في يوم السبت بعد صلاة العشاء توجه الجد مع شيخ المسجد إلى قاعة الندوات حتى يُعِدّو للكلمة الافتتاحية لنادي اللغة العربية، عاد نضال مع عز الدين إلى البيت ليصطحبا صمود وجهاد ثم ذهبا إلى القاعة، جلست صمود في المكان المخصص للنساء بينما جلس نضال وعز الدين في وسط أحد الصفوف الأولى.

جلس الجد على المنصة وبجانبه إمام المسجد وانتظروا لأن عدد الحضور كان قليلًا، لكن بعد فترة من الانتظار صار العدد مناسبًا فبدأ الجد كلامه قائلًا بصوته الرخيم: بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد: فإنكم تعرفون أننا الآن بصدد افتتاح نادي اللغة العربية في بلدتنا، لكن قبل أن نتطرق للأنشطة التي سيقوم بها النادي، وهي ستكون محل تطوير طوال الوقت إن شاء الله بناء على اقتراحاتكم وإبداعكم، أود أن أوصل لكم رؤيتنا والهدف من وراء هذا النادي، فهو إن كان أحد أهدافه الترفيه وإخراج الطاقات في موضع سليم فبالطبع هذا ليس الهدف الوحيد، لذا أود منكم الإنصات لما سنقوله الآن، لأنه كلام ليس من السهل فهمه إن لم تكونوا بكامل تركيزكم وإن أحسستم أن

الكلام في البداية هو بعيد عن موضوعنا فلا تقلقوا ستتضح الصورة بعد قليل.

سكت الجد برهة وأمسك ورقة كانت أمامه بأطراف أصابعه، فجعل نصفها الأعلى مرفوعا قليلًا، ونصفها الآخر مبسوطًا على الطاولة، نظر إليها قليلًا ثم عاود الكلام بعد أن وجه نظره للحضور قائلًا: في أيامنا هذه صار الركون للمادة والحضارة هو المرض الأسوأ لذلك العصر، مرض يهدد الإنسانية ليس بإبادتها ولكن بمحو معنى الإنسانية، فالحضارة تجعل من الناس نسخًا متشابهة وتفقدهم تفردهم الإنساني، فالكل مجرد ترس في آلة الحضارة ليس أكثر، كبر الترس أو صغر فهو مجرد ترس .

ومشكلة الحضارة أنها من القوة والانتشار والسطوة على نفوس الناس بحيث يصعب إظهار زيفها لهم، فإنها تظهر للناس بشكل المنقذ الذي سوف يجلب لهم الرخاء والرفاهية والسعادة، في حين أنه في الغالب لم يجلب إلا البؤس والزيف والتعاسة، هذا بجانب الانحطاط الكامل بالإنسانية وتخليتها من أجمل معانيها.

فكل شيء في نظر الحضارة آلة.. حتى الإنسان، لذا فإنك تجد تعارضًا كبيرًا بين الحضارة المادية والثقافة، فالثقافة تشد الإنسان تجاه روحه أما الحضارة فإنها تشده تجاه

شهواته ورغباته، شعار الحضارة: "اصنع رغبات جديدة كل يوم" وشعار الثقافة: "فلتسمُ على رغباتك، ولتقلل منها بقدر المستطاع"، فالسعادة في منظور الحضارة هي سعي محموم لإشباع الرغبات، وفي منظور الثقافة هي تحرير الإنسان من قيد شهواته، الحضارة تعامل الناس ككيانات جَمْعيّة متشابهة يمكن السيطرة عليها بوسائل الدعاية والإغراء، بينما تعامل الثقافة كل إنسان ككيان متفرد له خصائصه التي لا يشترك فيها مع غيره.

وإنه في المجتمعات الأكثر إيمانًا بالمادة يظهر ذلك جليًا، حيث يفقد أفراد ذلك المجتمع تدريجيًا هُوياتهم السابقة ويصبحون مع الوقت غير قادرين على استعادتها.

ولما كانت الحضارة من المستحيل أن تُقَاوم وجب على مدركي ذلك الزيف أن يُقَوّمُوها، وجب عليهم أن يحافظوا على الثقافة من غزو الحضارة، وإننا نرى في مجتمعنا الآن بشكل جلي كيف تُمحى ثقافتنا ليتحول أبناؤنا لمسوخ منبهرة بالحضارة، فالحضارة ببريقها تعمى العيون عن الجمال الكامن في الفنون والطبيعية، فمَن مِن الناس الآن لديه الوقت ليتأمل فيما حوله، ليرى الجمال في خلق الله، وليس إلا القليل من يعطون جانبًا من حياتهم لفعل شيء خارج نطاق إشباع الشهوات، كلنا الآن لاهون نسعى خلف سراب، سراب سمَّته لنا الحضارة السعادة، هذا السراب -يا إخوة- هو إشباع

الرغبات وهو مطلب لا يمكن إدراكه فكلما أشبعت رغبة خلقت لك الحضارة رغبات جديدة وغرستها في داخلك، لتبدأ مرة أخرى بنهم رحلة السعي لإشباع تلك الرغبات، ويظل الواحد منا كذلك إلى أن يموت ولم يدرك يومًا شبعًا ولا سعادة.

كان الجد عابد يتكلم بصوت هادئ ونبرة رصينة، تبث في النفس الرغبة في التأمل، وتنشر فيها سلامًا داخليًا.. كان الحضور يسمعونه بإنصاتٍ بالغ، حتى إنه لو سقطت إبرة لسمعت رنتها في أرجاء القاعة.

تابع: لذا فإنَّ مهمتنا تكمن في خلق تيار عكسي ضد تيار الحضارة يحافظ على الثقافة في صراعها غير المتكافئ.

يسكت الجد عابد ويضع يده على يد إمام المسجد إشارة له أن يتكلم فيقول الشيخ: الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله أما بعد: شكراً لأخي الحج عابد على هذا الكلام الرائع وعلى أسلوبه الذي يمس القلوب. لكن ربما يتساءل البعض ما علاقة ذلك الكلام باللغة؟!

إن اللغة وإن كانت هي يد العقل، فإنها أيضا -أحبتي في الله- هي السلة التي تُجمع فيها ثقافات الشعوب، وإنه ما انهارت أمة إلا بانهيار ثقافتها، فلا تظنَّن أن الفراعنة وغيرهم من الأمم الغابرة قد اندثروا لاندثار نسلهم، بل نسلهم باقٍ، إنما

اندثروا لاندثار ثقافتهم، وعلامة اندثار الثقافة هي اندثار اللغة.

صوت الشيخ وقور لكن أسلوبه أهدئ من أسلوب الجد عابد الذي يغلب على أسلوبه الحماسة، وإن حاول الكلام بهدوء، تظل الحماسة طابعه الذي لا يغيب عنه.. فكلامه وفعله مطبوع بالحماسة يلاحظها من يعرفه ومن يراه لأول مرة.

أكمل الشيخ قائلًا: واللغة وإن كانت ذات أهمية عظمى لحفظ ثقافات الشعوب أجمعين، فإن لها أهمية أعظم لحفظ ثقافتنا نحن، حيث أن ارتباطها بعقيدتنا لا يناظره سوى ارتباط العبرية بعقيدة اليهود، وقد كان أول ما قام به اليهود في سعيهم لإنشاء دولتهم هو إنشاء جامعة أطلقوا عليها اسم "الجامعة العبرية" وهذا كان بيانًا منهم لأهمية لغتهم في إنشاء دولتهم، وكانوا شديدي الحكمة إذ فطنوا لذلك، إذ أن جعلهم العبرية لغة دولتهم الناشئة كان من أثره أن ربط اليهود المشتتين في أنحاء العالم مرة أخرى، فصاروا يتكلمون جميعًا لغة واحدة بدلا من أن كان كل منهم يتكلم بلسان مختلف، وكان أثره الأعظم أن أعاد ربط اليهود باليهودية نفسها، فإنه ليس من الممكن أن يرتبط الإنسان بعقيدة لا يفهم لغتها .

فلم يكن اختيار اليهود للغة العبرية هو لمجرد أن يسهل التواصل بين أعضاء الدولة الناشئة إذ أنه كان من الأسهل عليهم أن يختاروا لغة مثل الإنجليزية فهي بالإضافة لكونها ستحقق هدف التواصل، فإنها أسهل في التعلم كما أنها لغة عالمية، لكنهم اختاروا العبرية بالذات، رغم أنها في هذا الوقت كانت تعتبر من اللغات الميتة، وقد أنفقوا أموالًا طائلة لتعليمها لكل اليهود المشتتين في أنحاء العالم، وهذا لربط اليهود برباط عقائدي يستحثون به المشاعر الكامنة في نفوس اليهود، ويصهرون ثقافاتهم المختلفة الناتجة عن الشتات في ثقافة واحدة مركزها العقيدة اليهودية والقومية اليهودية ولا شيء يفعل ذلك أفضل من اللغة المرتبطة بتلك العقيدة تاريخيًا ومعنويًا .

رفع عز الدين يده يريد التكلم فحاول نضال أن يسكته إلى أن ينهي الشيخ حديثه، لكن الشيخ لاحظ هذا فسمح لعز الدين بالتكلم قائلًا بابتسامة: دعه يتكلم يا بشمهندس، وجه الشيخ كلامه لعز الدين والابتسامة لم تفارق وجهه البشوش: ماذا تريد أن تقول يا بني؟

عز الدين: كيف وأنت شيخ تتكلم باسم الدين، تشجع الناس على الإيمان بالقومية العربية، إن القومية العربية هذه خرافة اخترعها أعداء الأمة لكي يستبدلوا الوحدة الإسلامية بها، وإن القومية هو مبدأ مخالف للإسلام، فلا فرق لعربي على

أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، كيف تنشر هذه الخرافات التي نشرها عبد الناصر وأمثاله للنيل من الدين؟!

يضحك جميع من في القاعة في صوت واحد ضحكًا هستيريًا على كلام هذا الصغير، بينما يضع نضال يده على جبهته فاتحًا فمه وهو يبتسم ويقول في نفسه: يبدو أننا سندخل السجن بسببك يا عز الدين.. بينما يقف عز الدين مستغربًا غاضبًا من ضحكهم هذا على كلامه، يسكت عز الدين قليلًا ثم يقول: ما الذي يضحككم؟ هل قلت شيئًا خاطئًا، أليست القومية العربية مخالفة للإسلام، وكل ما قيل عنها كان خداعًا للناس بغية السيطرة عليهم؟

يحاول الشيخ تمالك نفسه من الضحك بينما تبدأ القاعة في الهدوء تدريجيًا ثم يقول الشيخ: يبدو أن الولد فطنًا جريئًا مثل أبيه وجدِّه.. ما اسمك يا فتى؟

عز الدين: اسمي عز الدين نضال عابدٍ صالحٍ.

الشيخ: كلامك سليم يا عز الدين، القومية العربية مخالفة للإسلام.. فلا تفرقة في الإسلام بين عربي وغير عربي، ونعم كما قلت هناك من استخدم تلك الشعارات القومية لهدم الأمة الإسلامية وتشتيتها، لكن هذا لا يعني أن الاهتمام باللغة العربية مخالف للإسلام، بل على العكس، فكيف يفهم الناس الدين إن لم يفهموا اللغة العربية جيدًا، فالقرآن أنزله

الله بالعربية وكل كتب السنة والفقه الأولى مكتوبة بالعربية، ولكل أمة لغة تحمل ثقافتها، وأمة الإسلام لغتها هي لغة القرآن، اللغة العربية، اللغة التي اختارها الله لتحمل كل معاني كتابه.

لكن لا يجب أبدًا أن يُتخذ هذا الأمر زريعة لتحويل اللغة إلى فكرة قومية تُبعد الناس عن الحق وتدفعهم لتصديق الخرافات والدخول في نزاعات ما أنزل الله بها من سلطان، اللغة يجب أن تعامل كلغة ولا يجب إطلاقًا أن تتحول إلى قومية، وليس معنى أن البعض استخدم اللغة العربية لخدمة فكرة فاسدة أن نترك نحن اللغة العربية بالكلية رغم أهميتها وما فيها من خير، هل فهمت يا عز الدين؟

عز الدين وقد زالت عنه علامات الغضب من ضحك الحضور على كلامه: نعم شكرًا يا شيخ.

الشيخ: أين توقفنا فليذكرني أحدٌ إذا سمحتم.

يرد أحد الشباب الجالس على اليمين: توقفنا عند اهتمام اليهود الشديد بلغتهم العبرية.

الشيخ: شكرًا أخي. يستأنف الشيخ حديثه قائلًا: إننا أكثر من اليهود احتياجًا للغتنا، فإنه إن انهارت لغتنا العربية انهارت ثقافتنا بشكل كامل، فلا يمكن لغير الناطقين بالعربية أن يفهموا الدين بشكل سليم مهما تكبدوا من مجهود، فالنطق

بالعربية شرط لفهم الإسلام، لذا فإن اندثرت لغتنا، اندثرت ثقافتنا، وهدم ديننا.

وإننا لا نهدف لأن يصبح الناس علماء في النحو والصرف وإنما نهدف لأن يدركوا جمال اللغة وأهميتها ومعانيها، وأن يرتبطوا بها نفسيا، حتى إذا تعرضوا للحضارات الأخرى وجدوا في نفوسهم حائطًا صلبًا يحول بينهم وبين الذوبان فيها، فيظل راسخًا في نفوسهم الارتباط بثقافتهم وإيمانهم بها، مهما سافروا وخالطوا غيرهم من الثقافات.

ولما كان الشباب النابغ هم الأقدر على حمل راية الأمة، وهم أيضًا الأكثر تعرضا لحملات الحضارة المادية لنزع الثقافة الإسلامية من قلبه، رأينا أنه من الواجب علينا أن نستهدف ذلك الشباب النابغ بشكل أخص حتى يتشكل داخله الوعي الذي يحول بين تلك الحملات وبين قلبه، فيصير منيعًا ضد حملات المسخ والتشويه .

إنه من المؤسف أن شبابنا اليوم صاروا لا يسمعون إلا من جهة واحدة، فالحضارة تملك كل وسائل الإعلام والترويج، مما جعل كل ما هو معارض لذلك الصوت غريبًا على آذانهم مستهجنا من عقولهم حتى ولو كان فيه كل الحقيقة، ومهمتنا أن نُعوّد آذانهم على صوت آخر هو صوت هويتهم، فلا يأخذوا من الحضارة إلا النافع لهم ولأمتهم.

وإننا أيضًا لا نسعى لتقديم اللغة العربية للناس بشكل سطحي يستهدف المشاعر القومية والعصبية في نفوسهم، كما أوضحنا منذ قليل، بل نسعى لأن نسمو بخلقهم وفكرهم وثقافتهم من خلال اللغة، لذا لا يجب أن يُفرَّغ السعي لغرس أهمية اللغة أبدًا من السعي لغرس الخلق والثقافة والتفكير النقدي المنطقي السليم.

ولا يجب أيضًا أن يخلو ذلك السعي من الترفيه، فيصير جامدًا ثقيلًا على النفوس، وإنما يجب أن تزين مساعينا بترفيه يجذب النفوس والقلوب لجوهر تلك المساعي من ترسيخ للثقافة وسمو بالوعي والأخلاق.

ولا يجب أن يفهم من كلامنا أننا نعارض العلم المادي والحضارة أو نراهما شرًا، فإن العلم المادي في عيوننا هو مجرد أداة لا توصف بخير ولا بشر، ومستخدمها هو من يحدد وجهها، إن شرًّا أو خيرًا، فإن استخدمت في خير سهلت الوصول إليه، وإن استخدمت في شر جعلته أكثر تنكيلًا وإفسادًا .

إننا فقط نسعى لأن توضع الأمور في نصابها، وأن يُزال ذلك البريق الزائف عن الحضارة المادية ليراها الناس على حقيقتها كأداة محايدة، فنجنب أنفسنا بهذا ما يلحقنا منها من شر. إننا نسعى لتناغم بين الحضارة المادية وبين ثقافتنا،

حتى لا تطغى الحضارة المادية عليها، إننا لا نسعى أبدًا لمحاربة العلم المادي، بل نرى منه ضرورة لا يمكن التراجع عنها في الوقت الراهن، ونرى أنه من واجب أبناء الأمة أن يتعلموا هذا العلم وأن ينبغوا فيه، لكن فقط نحن نريد أن يدرك الناس أن العلم المادي أداة لا غاية، وسيلة لا هدف ... إنما الهدف هو تحرير الناس من كل عبودية لغير الله، ولو كانت عبودية لرغباتهم المادية....

يتنهد الشيخ ثم يقول: شكرًا.. وإن كان لدى أحدِكم أي سؤال فليتفضل.

تبدأ الأسئلة والنقاش حول الأنشطة التي يجب أن يقدمها النادي، يستغرق ذلك النقاش ساعتين كاملتين، ثم يعود عز الدين مع أسرته إلى البيت ويدخلوا في حديث من السمر طريف حول مقاطعة عز الدين المفعمة بحماس الطفولة لكلام الشيخ .

# الجمعة الخامسة

جلس نضال وعز الدين في الشرفة كمثل الجمعة الماضية، قال نضال: أين توقفنا يا عز الدين؟

عز الدين: امممممم، كنا قد ذكرنا كيفية السيطرة على الناس عن طريق تحويليهم لجمهور، وذكرنا خواص الجمهور وكيف أنه يكون لا عقلانيًا حتى وإن كان أفراده هم أشخاص عقلانيين في الحالات العادية، وذكرنا انه يمكن تكوين الجمهور عن طريق إحداث شيء يهز النفوس ويجمع الناس على هدف واحد مشترك، ويجب أن يكون ذلك المؤثر هو شيء مرتبط بالمعتقدات أو الأوهام أو العصبيات أو المخاوف أو التطلعات الكامنة لهؤلاء الأشخاص، فحتى إن كان الأفراد المراد السيطرة عليهم مختلفين كلية في التوجه الفكري، فيمكن جمعهم في جمهور إذا اشتركوا في بعض النزعات العاطفية، وحتى لو اشتركوا في نزعة واحدة يمكن جمعهم حول هذه النزعة، وكلما كان هؤلاء الناس أقرب لبعضهم كلما زادت عدد النزعات العاطفية المشتركة، فأهل البلدة الواحدة يتشاركون في أغلب النزعات العاطفية حتى وان بدوا مختلفين في المعتقدات الفكرية، فإن التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة تظل كامنة داخلهم جميعًا وتسيطر على عقلهم الباطن الجمعي وتظهر في أوقات

الاستثارة لهذا العقل الباطن الجمعي. وقد تحدثنا أيضًا عن الطريقة التقليدية لانتشار روح الجمهور وهي العدوى.. هذا فقط...

نضال فاغر فاه ينظر إلى عز الدين باستغراب ثم ينطق قائلًا: لكني لم أخبرك بكل هذا، كيف عرفت كل ذلك الكلام؟!

عز الدين: امممم، لقد أخذت كتاب سيكولوجية الجماهير من مكتبة جدي وقرأته، وفهمت هذه الأشياء.

نضال بفرحة: قرأته وحدك يا عز الدين، هذا جيد جدًا، جيد جدًا أنك بدأت تقرأ وحدك، إذًا أنت لست في حاجة إليّ الآن، هيا قم.. انتهى الدرس!

عز الدين: لا تمزح يا أبي، فما كان لي أن أعرف هذا الكتاب أو أفهمه لولا شرحك، هيا أكمل.

نضال: لكن الأفضل لك أن تخوض الطريق وحدك، وطالما استطعت أن تبدأ فأكمل.

عز الدين: لكن سيكون أسهل لو ساعدتني، كما أني أسعد بالتناقش معك يا أبي فهذا يثري تفكيري.

نضال: حسنًا.. لكن طالما بدأت تقرأ وحدك فلا تتوقف عن ذلك، إنه في غاية الأهمية أن تحصل على المعلومة وحدك،

هكذا سيصعب خداعك، إنَّ أكثر الناس تعرضًا للخداع هم أولئك الذين يعتمدون على غيرهم في المعلومة، يجب أن تعتمد على نفسك.. اتفقنا؟

عز الدين: اتفقنا.

سكت نضال برهه ثم تابع: كان جوستاف لوبون أول من وضع فكرة السيطرة على الجماهير في شكل علمي، ثم بدأ الكثيرين بعده يطورون مبادئه تلك لكي يحققوا نتائج أكثر فاعلية وأوسع وأسرع انتشارًا، تزامن ذلك مع التطور التكنولوجي والذي سهل انتقال المعلومات، بداية مع تطور أساليب الطباعة والتي سهلت طباعة الجرائد.. ذلك بالإضافة لاختراع القطارات مما سهل انتشار تلك الجرائد في مساحات كبيرة في وقت قصير، بحدوث هذين الأمرين بدأ ينشأ شيء في غاية الخطورة، شيء سهل على الطغاة التحكم في عقول الناس وظل يتطور حتى صار اليوم من القوة بحيث يستحيل أن تحمي نفسك منه بشكل كامل.

# الإعلام

إنه الإعلام يا عز الدين .

عز الدين: ذلك الذي وصفه جدي، بالدجل الحديث عندما مرت السيدتان بينما كنا نصطاد، أليس كذلك؟

نضال: نعم يا عز الدين أحسنت.

بدأت فكرة الإعلام في الظهور بشكل جلي في منطقتنا بشكل خاص بعد الثورة الفرنسية وذلك عندما جاء نابليون بحملته إلى مصر. تَذْكُر يا عز الدين عندما أخبرتك أن نابليون قد أصدر منشورًا بمجرد وصوله إلى مصر، ادعى فيه أنه مسلم وأنه جاء ليدافع عن الإسلام؟

عز الدين: نعم.. أذكر.

نضال: جاء نابليون بحملته ومعه مطبعة، كانت هي أول مطبعة تعرفها مصر، كان يستهدف بذلك التأثير على المصريين عن طريق استهداف مشاعرهم الدينية، لذلك فقد ادعى الإسلام وحاول أن يضم المصريين إلى صفِّه حتى يسهل له التوسع خارج مصر، ورغم فشلِه في السيطرة على المصريين، إلا أنه كان أول من فكر في تلك الفكرة.. فكر أن

يستخدم الطباعة كأداة للسيطرة على الجماهير، حتى قبل أن يولد جوستاف لوبون، كان نابليون من أولئك القادة المحركون، كان يفهم طرق التأثير على الناس بفطرته، حتى قبل أن يتحول الأمر إلى علم.

بعد ذلك أُصدرت الجرائد وبدأت تنتشر في جميع أنحاء العالم.. كانت أغلب الجرائد من النوع الرسمي، وهي جرائد تستهدف الترويج للحكومات وتمجيد أفعالها. بهذا أصبح من السهل تشكيل جمهور على مساحة أكبر وفي وقت قصير .

عز الدين: وهل يكونُ الإعلام دائمًا مضلِّلًا؟ أعني هل لا يمكن استخدامه للترويج للأفكار الصحيحة، وللدفاع عن المستضعفين ونشر قضاياهم؟

نضال: بالطبع يمكن استخدام الإعلام في أغراض طيبة يا ولدي، بل يجب علينا أن نسعى لفعل ذلك، لكن للأسف طوال السنين الماضية كان الغالب الأعم أن يستخدم الإعلام لأغراض شريرة، ذلك أن الإعلام يحتاج إلى أموال كثيرة حتى يكون فعالًا، لذا فقد امتلك المجرمون الأغنياء أقوى أبواق الإعلام في العالم، أما الأصوات الإعلامية الشريفة فإنها خافتة أمام ذلك الضجيج الشديد الذي تصدره تلك الأبواق الشريرة.

عز الدين: أفهم كيف يمكن توجيه الجمهور على نطاق أوسع باستخدام الإعلام، لكني لا أفهم كيف يمكن تكوين الجمهور في البداية عن طريق الإعلام؟ لقد قلنا إنه لكي يسهل السيطرة على مجموعة من الناس يجب تحويليهم لجمهور وذلك باستخدام مؤثر شديد يعصف بنفوسهم ويجمعهم جميعا في كيان واحد، كيف يفعل الإعلام هذا؟

نضال: الإعلام يا ولدي أداة نقل، كل ما يفعله أنه ينقل المؤثر من مكان لمكان آخر وبالتالي تحدث عدوى الجمهور التي تكلمنا عنها سابقًا بشكل أسرع وأكثر فاعلية. لكن لكي يحول الساسة مجموعة من الناس لجمهور، فإنهم في الغالب يستخدمون أحد المؤثرات الشديدة كالخوف من عدو ما، أو الشهوة، أو النزعة العصبية القومية أو الدين، أو خليط من هذا وذاك، وذلك لخلق الوسط المناسب لتكوُّن الجمهور. فإذا تكون الجمهور في مكان ما، قام الإعلام بنقل العدوى على نطاق أوسع حتى تبلغ كل المساحة التي يستهدفها الساسة.

وللإعلام أساليب في ذلك نشأت مع نشأته، أهمها التكرار والتضخيم واللعب على العواطف الكامنة المشتركة لدى المجموعة التي يراد تحويليها لجمهور. فلكي يجعلك الإعلام تصدق شيئًا ما فستجده يكرره لك باستمرار ويحاول أن يظهر لك أن الجميع يؤمن ويوافق على هذا الشيء، فحتى إن كان الأمر في بدايته سخيفًا بالنسبة لك، فإحساسك أن

الجميع يؤمن بهذا الشيء يخلق داخلك إحساس بالغربة، وبالتالي ينشأ داخلك حافز يدفعك لتصديق هذا الأمر والإيمان به، فتترقب نفسك فرصة لكي تزيل عنك ذلك الإحساس السئ بالغربة، وهو إحساس لا يطيقه الإنسان، حتى إذا طرأ أمامك أمر يثبت هذا الشيء ولو بنسبة قليلة جدًا تتلقفه نفسك وتعتبره كافٍ لإثبات الأمر بالكلية، ويتحول الأمر داخلك لعقيدة وذلك باستخدام التكرار المستمر لهذا الأمر.

يستخدم الإعلام طريقة التكرار أيضًا لإنشاء الرابط المشترك الذي من المفترض أن يتجمع حوله الجمهور، إن لم يكن هذا الرابط موجود أصلًا في عقل الجمهور الباطن الناشئ عن بيئته وعاداته وتقاليده. فإن أرادت الحكومة أن تحفز شعبًا مسالمًا للحرب ضد شعب مسالمٍ آخر، وربما تربطه مع هذا الشعب روابط عائلية وعرقية منذ زمن طويل، ستجد هذه الحكومة تكرر في إعلامها أن هناك حربًا أبدية نشأت بين هذين الشعبين منذ أن خلق الله آدم، ورغم سخف الفكرة ومعرفة هذا الشعب بكذبها إلا أن تكرارها في الإعلام يجعل الناس مع الوقت يصدقونها، حتى ولو كانت أسخف أكذوبة .

يستخدم أيضًا الإعلام وسيلة أخرى وهي تضخيم بعض الأحداث جدًا وتفسيرها بصورة مغايرة للحقيقة وذلك لخلق

ذلك الحافز الذي يدفع المستمع للتصديق بالفكرة التي يحاول بثها الإعلام عن طريق التكرار. فمثلًا حادثة قتل عادية تحدث بين أحد أفراد هذا الشعب وفرد من الشعب الآخر، يتلقفها الإعلام ويبدأ في تضخيمها وتفسيرها بتفسيرات عدائية، فيبدأ الناس بتصديق الفكرة السخيفة التي كان الإعلام يبثها ويكررها، إذ أنه أصبح عليها دليل، ورغم أن حادثة القتل هذه ربما لو حدثت منذ شهور لما فسرت أبدًا على أنها اعتداء من كامل الشعب الآخر على الشعب المستهدف من الماكينة الإعلامية، لكن الإعلام قام بتضخيمها وتفسيرها تفسيرات بعيدة عن الحقيقة وقام بتكرار تلك التفسيرات حتى تصبح في أذهان الجمهور حقائق لا تقبل النقاش .

ومن أهم أساليب الإعلام في خداع الناس التلاعب بالألفاظ وتميع المعاني، فإنك إن قلت لبعض الناس أن 50% منكم سيئون سيغضبون ويثورن، أما إن قلت لهم أن 50% منكم صالحون سيفرحون بكلامك وينتبهون له. وهكذا يفعل الإعلام إنه يسمى الأشياء القبيحة التي يريد الترويج لها بأسامي محببة ويسمى الأشياء الحسنة التي يريد تنفير الناس منها بأسماء سيئة، فيتغير شعور الناس تجاه الأشياء بشكل لا إرادي، ذاك أن أغلب الناس لا يهتمون بالبحث في

المعاني وفي التفاصيل، وإنما يكتفون بالانطباع الأول عن الأشياء، والانطباع الأول يؤخذ من الاسم .

عز الدين مقاطعًا: هل لي بمثال على هذا؟

نضال: امممم، حسناً، يظن الكثيرون أن يوتوبيا أفلاطون هي المدينة الفاضلة، لكنهم لا يعلمون أنها هي هي أوشينا جورج أوريل...

هل رأيت؟ كيف يميع التلاعب بالألفاظ المعاني ويبدلها في نفوس الناس؟

عز الدين تتسع عينيه دهشه ثم يبتسم ويقول: لم أفهم شيء؟ ما هي يوتوبيا وما هي أوشينا؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين ذكرتهم؟

نضال: هههههه، أعلم أنك لا تعرف، كنت أمازحك!
أفلاطون هو أحد فلاسفة الإغريق وقد كان مهتمًا في فلسفته برسم نموذج مثالي لكافة المعاني، فحاول أن يوجد نموذج مثالي للمدينة، وكتب كتاب عن هذا النموذج، وسمى المدينة التي يصفها في هذا الكتاب بيوتوبيا وترجمتها الحرفية المدينة الفاضلة، أما جورج أوريل فهو كاتب من كتاب القرن الماضي وقد ألف رواية 1984 وهي رواية تتحدث عن مدينة وصلت للحد الأقصى من الاستبداد والظلم وتكبيل الحريات، هذه المدينة أسمها أوشينا .

المفارقة هنا هي أن المواصفات التي وضعها أفلاطون لليوتوبيا تشبه إلى حد كبير الصفات التي وضعها أوريل لأوشينا، لكن اليوتوبيا عُرضت للناس على أنها المدينة الفاضلة، فأحبوها وتمنوا لو يعيشوا فيها.. وأصبح الناس يضربون بها المثل عن مدينة الأحلام، فإن أراد أحد الناس أمرً خياليًا أن يحدث في بلدته، رد عليه صاحبه.. نحن لسنا في يوتوبيا. وذلك بدون أن يعلموا أي شيء عن صفاتها، أما أوشينا فعرضت على أنها أكثر المدن قتامة وشرًا فكرهها الناس، رغم أن أوشينا ويوتوبيا كلاهما واحد تقريبًا في أغلب الصفات، وكلاهما مبنيان على أنظمة شمولية مستبدة، حتى أن أسم الحاكم في أوشينا هو "الأخ الأكبر" وأسمه في يوتوبيا هو "الفيلسوف الأعظم."

فهكذا يمكن أن يحدد اسم الشيء إحساس الناس به، فالاسم الحسن يشعر الناس بإحساس حسن تجاه الشيء، والاسم السيئ يشعر الناس بإحساس سيئ تجاه الشيء. والإعلام منذ بدأ أظهر براعة فائقة في استخدام نقطة الضعف هذه عند البشر للتلاعب بمشاعرهم وأفكارهم .

عز الدين: اممم، فهمت!

تابع نضال: ويستخدم أيضًا الإعلام أسلوب التعتيم والتضليل، فإنه بالإضافة لتضخيمه الأخبار التي تخدم

أجندته، فإنه يعتم على الأخبار التي لا تخدم أجندته، فإن كان لا يمكن إخفاءها بشكل كامل، فإنه يظهر جزءًا منها ويخفي جزءًا، ويقوم بتحوير الخبر المضاد لأجندته بحيث يفقد الخبر فاعليته.  لا يمكن لأي بوق إعلامي أن يخفي كل الأخبار المضادة لأجندته، لذا فهو يُظهر جزء منها حتى يَظهر بمظهر المحايد المدافع عن الحق ثم لا يلبس أن يُظهر تلك الأخبار وكأنها استثناءات لا تحدث إلا قليلًا وبالتالي لا يجب البناء عليها أبدًا .

بعد فترة من زخات التكرار والتضخيم والتعتيم والتمييع، يبدأ الجمهور المستهدف بتصديق الفكرة التي يطرحها الإعلام، ثم تتحول بعد ذلك لعقائد راسخة في عقله الباطن، حتى يصير غير قابل لتصديق أي شيء مضاد لتلك العقيدة مهما كانت خاطئة، فإنه الآن قد تحول لجمهور، والجمهور لا تحركه إلا مشاعره، الخوف والكراهية والعصبية والشهوة تبدأ بالسيطرة على كيان كل أفراد الجمهور، فلا يقبلون أبدًا أي تحكيم للعقل، حتى وإن حاولت أن تريهم خطأ بعض ما يؤمنون به فاصطدمت بتلك المعتقدات التي رسخها الإعلام، سيرفضون كلامك كلية، بل وربما يقتلونك، مهما كان كلامك مدعم بالدلائل الثابتة المنطقية.. لأنهم ببساطة لا يصلح المنطق أبدًا لتحريكهم، بل إنهم في تلك الحالة من

السُكر يكرهون المنطق.. هم لا تحركهم إلا المشاعر البدائية والعواطف والأوهام والمعتقدات والمخاوف.

والإعلام أيضًا لكي يضمن تنحية كافة الأصوات المعارضة لصوته. فإنه يبدأ بتشويه صورة كل المعارضين، فهو يصفهم بالخونة، أو العملاء، أو المتخلفين، أو الممولين، أو الجهلة أو ربما إرهابيين .

لذلك ستعجب إن كنت لا تفهم سيكولوجية الجماهير، عندما تجادل أحد الناس بالمنطق وبالدلائل، ثم تجده عندما لا يجد ردًا منطقيًا على كلامك، يبدأ في كيل السباب والشتائم لك، كل هذه الشتائم تم غرسها بنفس أسلوب التكرار والتضخيم والتعتيم داخل نفوس أفراد الجمهور. فالجمهور لا يخترع شيء هو فقط يكرر ما يملى عليه من محركيه.

عز الدين: أفهم من كلامك يا أبي أن الحملات الإعلامية الكاذبة لا تستطيع السيطرة على كافة الناس وإنما يبقى جزء معارض لها ومدرك لكذبها؟

نضال: بالتأكيد، فهناك دائمًا من يدركون كذب الدعاية، بعضهم يدركها بسرعة جدًا وبعضهم يدركها بعد وقت، وما كلامي هذا معك إلا لأجعلك واحدا من هؤلاء الذين يدركون الكذب في أول أمره .

هل تذكر الأسئلة التي أخبرتك أن تسألها لنفسك دائما؟

عز الدين: نعم أذكرها.. ما الهدف من هذا الفعل؟ هل ما أفعله هذا منطقي؟ هل هو مخالف للإسلام أم متفق معه؟

نضال: أحسنت يا عز الدين.

عز الدين: لكن هل الشعوب غير المسلمة لا تستطيع أن تدرك الدعاية الكاذبة؟

نضال: بلا، تستطيع في كثير من الأحيان، لكن عدم وجود مرجع وثيق يعودون إليه يجعلهم عرضة للتأثر بشكل كبير جدًا بالدعاية السيئة، وإنك لتلحظ كيف انتشرت فيهم الآن كثيرًا من الأفكار التي كانوا ينكرونها منذ فترة، كالشذوذ، والزنى، وغيرها من الفواحش. كانت هذه الأشياء مرفوضة لدى الشعوب غير المسلمة منذ فترة ليست كبيرة، لكن الدعاية جعلتها الآن من المسَلَّمات، حتى صاروا يرمون من يرفضها بالتخلف والرجعية، وهي اتهامات أمليت عليهم من الإعلام. فهم يكررونها.

عز الدين: امممم، هذه الأساليب التي ذكرت يا والدي أن الإعلام يستخدمها في خداع الناس، هل نشأت بعد نابليون أم بعد جوستاف لوبون أم متى؟

نضال: بالطبع يا ولدي هذه الأساليب لم تنشأ فجأة لكنها تطورت خلال زمن طويل، ولا يُعلم متى نشأت بالتحديد، بل ربما كانت معروفة لبعض الناس، الذين لم تصلنا

أخبارهم، قبل ذلك بزمن طويل. لكنها كانت تزداد قوة كلما تتطور تكنولوجيا وسائل الإعلام، ففي البداية كانت الجرائد، ثم ظهر الراديو، ثم السينما، ثم التلفزيون وأخيرًا الإنترنت.

إلا أن أساليب الخداع تقريبًا لم تتغير مع جميع وسائل الإعلام ما عدا الإنترنت، فقط كانت تزداد فاعلية، فلا اختلاف كبير بين الجرائد والراديو والتلفزيون، لكن الإنترنت أضاف أساليب مختلفة في الخداع، وسأخبرك بذلك بعد قليل إن شاء الله .

ما أريد أن أخبرك به الآن هو أن أساليب الخداع من تكرار وتضخيم وتعتيم وتضليل وتمييع، بغض النظر عن وقت نشأتها بالتحديد، كانت قد تبلورت تقريبًا بشكل كامل أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم ظهر أثرها جليًا للعالم في الحرب العالمية الثانية، بالتحديد ظهرت هذه الأساليب متجمعة بشكل جلي في الإعلام النازي، أو ما يعرف بإعلام غوبلز...

سكت نضال هنيهة ثم أردف: بول جوزيف غوبلز هو وزير الدعاية السياسية في عهد أدولف هتلر، وقد كان أول من استخدم نظام الدعاية المتكامل الذي أخبرتك عنه، بشكل واضح، ونفذه واستطاع به أن يحول الشعب الألماني بشكل كامل تقريبًا لجمهور يخدم فكرة النازية، ورغم سخف الفكرة

إلا أن كل ألمانيا تقريبًا بعلمائها وأدباءها وفلاسفتها ومثقفيها اعتنقوا الفكر النازي، وكان ذلك بفضل أسلوب الدعاية الذي طوره غوبلز استنادًا على معرفته بسيكولوجية الجماهير واستنادًا لما كان قد وصل إليه الإعلام من أساليب ووسائل في هذا الوقت. ومن أقوال غوبلز الشهيرة:" اكذب حتى يصدقك الناس."

عز الدين: هذا أسلوب التكرار، أليس كذلك؟

نضال: نعم، كان غوبلز بلا منازع أسطورة الحرب النفسية وتوجيه الجماهير، كان فيلسوفًا في مجال الكذب أو ما يسمى بالدعاية السوداء، كان يكذب كذبًا ممنهجًا بحيث أستطاع أن يبرمج عموم الألمان ليتبعوا الفكرة النازية ويؤمنوا بهتلر كمخلصهم الأوحد، ورغم انهزام ألمانيا إلا أن أسلوب غوبلز الفج قد لفت نظر العالم إلى أهمية وسائل الإعلام وإلى أثرها الشديد في الانتصار في أي حرب.

عز الدين: وهل كان غوبلز هو أول من استخدم أساليب الخداع تلك؟

نضال: قد أخبرتك أنها تطورت خلال فترة طويلة، وبالطبع لم يكن هو الوحيد ولم يكن أول من استخدمها، لكنه كان أول من استخدمها بتلك الفجاجة. فإنجلترا نفسها عدوة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية قد استخدمت أساليب الخداع والحرب

النفسية لكي تبث الهزيمة في نفوس الشعب الألماني. ففي أواخر أيام الحرب العالمية الثانية أصدرت إنجلترا قنوات راديو باللغة الألمانية وكان لهذه القنوات أثر كبير في تعجيل هزيمة ألمانيا .

كما أن اليهود، كما أخبرتك سابقًا، كانوا قد استخدموا الدعاية للترويج للأفكار القومية والعلمانية في أنحاء العالم بشكل عام وفي الأمة الإسلامية بشكل خاص، وكان لإعلامهم الدور الأكبر في إسقاط الخلافة.

قد فهم اليهود قبل غوبلز بفترة طويلة خطورة الإعلام وأهميته، لكن غوبلز أظهر تلك الأهمية بشكل عملي فج، لذا فبعد الحرب العالمية الثانية أهتم اليهود أكثر بالإعلام، واستخدموا اضطهاد هتلر لليهود كوسيلة لاستجلاب تعاطف العالم معهم، فقد أنتج اليهود مجموعة كبير من الأفلام السينمائية تتحدث عن معاناتهم أثناء الحرب العالمية الثانية وعن الهولوكوست، واستخدموا هذه الأفلام في الترويج لاحتلال فلسطين ولأحقيتهم فيها. وقد أثرت تلك الأفلام أشد تأثير على ضمائر العالم، فقد استطاعت إسرائيل بتلك الأفلام أن تحظى بتعاطف أغلب سكان العالم في هذا الوقت. ليس هذا فقط، فقد تمكن اليهود بفضل أموالهم الطائلة أن يسيطروا على أهم وسائل الإعلام في العالم، ووجوها لخدمة مساعيهم، وفي الحقيقة فإن سعي اليهود للسيطرة على

وسائل الإعلام بدأ قبل الحرب العالمية بفترة طويلة جدا. وهم الآن يملكون أهم وسائل الإعلام في العالم. [11]

عز الدين: وهل الإعلام يُستخدم فقط لأغراض السيطرة السياسية؟

نضال: بالطبع لا.. فالأعلام الآن يستخدم دعاياه وأساليبه القبيحة للترويج للمنتجات فيما يسمى الآن بالتسويق. بالطبع ليس كل التسويق له أهداف سيئة، بل أغلبه لا يهدف إلا لزيادة مكاسب الشركات ولا يهدف للإضرار بالناس.. لكن ما حدث مع الأسف أنه أضر بالناس.

فالمبدأ التسويقي الأهم حاليًا، هو "أصنع رغبة ثم بعها"، كل يوم تجد دعاية لمنتج جديد، يستخدمون كافة أساليب الإعلام سيئة السمعة للسيطرة على عواطف الناس والتلاعب بها، فهذا المنتج يقتل 99% من الجراثيم، ثم يظهر طفل مريض بسبب الجراثيم وأم تبكي بسبب تقصيرها مع ابنها، ثم يأتي الطبيب العبقري ويعطيها هذا المنتج ويقول لها "استخدميه إن كنت تخافين على ابنك".. هنا يلعبون على مشاعر الأمومة، وبالتالي الأم التي لا تشتري هذا المنتج تشعر بالذنب تجاه أبنائِها. لكن من قال إننا نحتاج أن نقتل 99% من الجراثيم، في جسم الإنسان جهاز مناعي مهمته أن يقاوم

الجراثيم، والجراثيم لا يمكن أبدًا القضاء على 99% منها مهما حاولت، وحتى إن وصلت لهذا، فهو أمر بلا أهمية، إذ أن جسم الإنسان قادر على مقاومة أكثر من 99% من الجراثيم بدون مساعدة هذا المنتج أصلاً. لكنهم يريدون بيع منتجهم لذا يستخدمون أي وسيلة لفعل هذا، حتى ولو كانت هي التلاعب بمشاعر الناس وغرائزهم.

عز الدين: إذًا هذا الإعلام كان يستهدف جمهور الأمهات، عن طريق التلاعب بعاطفة الأمومة.

نضال: بالضبط يا عز الدين، وهكذا كل شيء يتم الترويج إليه يستهدف أحد العواطف الكامنة ويضرب عليها، حتى ينشأ جمهور مرتبط بهذه العاطفة. ربما لا ينطبق على أفراد هذا الجمهور صفات الجمهور إلا فيما يتعلق بتلك العاطفة. يعني أن الأمر صار أكثر ديناميكية مما وصفه لوبون، وصار مصطلح الجمهور أكثر مرونة، فلم يصبح الأمر يحتاج لاستحداث كارثة، وهذا لأن الأمر هنا بسيط.. فقط أن تريد من الفرد أن يشتري منتجًا.. وهذا يختلف مع من يراد له أن يضحى بحياته.. فيجب أن يكون المؤثر أكبر وقتها.

لذا فقد صار هناك ما أسميه بجمهور العاطفة أو الشهوة، وهو جمهور لحظي تجمعه أحد العواطف أو أحد الشهوات

وتستخدم تلك العاطفة أو الشهوة لتوجيهه لفعل شيء ما، كشراء منتج أو الترويج لمنتج أو تنفيذ مهمة بسيطة .

عز الدين: لكن ما الذي سيضر إن اشترت الأمهات هذا المنتج؟

نضال: هذا مثال واحد يا عز الدين، لكن هناك آلاف الأمثلة والمنتجات التي تقوم الشركات بالتلاعب بعواطف الناس لشرائها، وبالتالي أصيب الكثيرون بأمراض نفسية متعلقة بما يسمى نهم الشراء. فإن الناس صاروا يشعرون أن سعادتهم وصحتهم تكمن في شراء هذه المنتجات، وكلما اشتروا منتج، ظهر منتج آخر. فيتحول الناس إلى عبيد لهذا الأمر.. يعمل المرء ليل نهار ليشتري شيء ظناً منه أنه سيعطيه السعادة ثم ما إن يحصل عليه وينفق كل ما يملك، تخلق الشركات له رغبة أخرى فيبدأ مرة أخرى رحلة العمل للحصول على تلك الرغبة .

وبالطبع أغلب هذه المنتجات ليست ذات أهمية على الإطلاق، والسعادة أبسط من ذلك بكثير، هناك أشياء بسيطة تشعرنا بالسعادة، هذه الدعاية تعمي عيون الناس عنها، وتسرق أموالهم وثمرة شبابهم بغية البحث عن سراب، ولو استخدموا تلك الأموال في عمل مفيد أو أعطوها لمحتاج لكان خيرًا لهم. وهذا أحد آثار ما يسمى بالرأسمالية.. فإنها

مجموعة من الناس يملكون كل شيء يجعلون الناس يعملون ليل نهار كعبيد عندهم، ثم يعطوهم مال قليل نظير هذا العمل، وبمجرد أن يعطوهم هذا المال بيدهم اليمنى يستخدمون إعلامهم لامتصاصه منهم بيدهم اليسرى عن طريق عرض وترويج منتجات ليست ذات أهمية... اممم، سأحدثك عن ذلك الأمر بتفصيل أكبر فيما بعد .

عز الدين: لكني كنت أظن أن تجربة أشياء جديدة هو أحد أسباب السعادة؟

نضال: ليس شرطًا، بل إني لا أجد من ذلك شيء يشعر بالسعادة إلا السفر، فالسفر لأماكن جديدة هو أحد أسباب الشعور بالسعادة، لكن شراء منتجات جديدة ليست أبدًا وسيلة للسعادة بل إنها تعمي أعيننا عن أشياء فيها كثير من السعادة، فالبحث النهم عن كل منتج جديد جعلنا نغفل عن أشياء كثيرة تحت تهمة أنها رتيبة ومكررة، وتحت دعاية التجديد .

هناك بعض الأشياء -يا ولدي- لو تجرعها المرء طول عمره ما كرهها وما مل منها، هي الأشياء الممزوجة بالروح، المزينة بالحب، النابعة من العلاقات الإنسانية المجردة. فأكل أمي -رحمها الله- كنت أشتهيه ولو أكلته مائة مرة، وضحكات أحبابي أطرب بسماعها ولو سمعتها مرة

بعد مرة، ويوم أن يلقى المرء رفيق روحه، لا يرى حتى عيوبه عيوبًا فيتحول حبه مع الوقت، بل يحب الواحد عيوب رفيق روحه ليراها ميزات يسعد بها، ولا يرى في تكرر الأيام رتابة مملة، بل تتحول تلك الرتابة بشكل غريب مصدراً للسعادة .

لقد رموا أشياء كثيرة هي مصدر سعادة حقيقية بتهمة الرتابة، فغفل الناس عنها وطفقوا يبحثون عن زيف وبريق لا معنى له.

عز الدين: فهمت مقصدك يا والدي.. لكن، هل يقتصر الأمر في الدعاية على الأغراض السياسية والترويج للمنتجات، أم أن هناك شيء آخر؟

نضال: بالطبع يا ولدي دائمًا.. هناك استخدام آخر للشيء، لكن أخطر استخدام هو استخدام الإعلام للترويج للعقائد والأفكار، وقد كلمتك سابقًا عن نشر فكرة القومية، وكيف كان أثرها على العالم، فقد غيرت تلك الفكرة شكل العالم بشكل عام، وتوجت ناس لم يكن التاريخ يسمع بهم على عرشه. إنه ما من شيء ينافس الأفكار والعقائد في الخطورة، وسأعطيك مثال آخر على أحد الأفكار الحاكمة لعصرنا الحالي لكن بعد أن أنهي كلامي عن موضوع الإعلام.

# الإنترنت.. لقد صاروا يعرفون عنا كل شيء

فلقد زاد الأمر يا ولدي خطورة على خطورته بعد دخول الإنترنت ساحة الإعلام والدعاية. كنتُ قد قلتُ إن الخطوة الأولى للسيطرة على جمهور ما هو إيجاد عاطفة مشتركة بين أفراد هذا الجمهور وبعد ذلك استخدام تلك العاطفة للسيطرة على الجمهور. لكن هذه الطريقة عشوائية إلى حد كبير، فعندما تقوم مؤسسة ما بحملة إعلامية أو تسويقية موجهه لفئة معينة باستخدام وسائل الإعلام التقليدية فإنها تصممها بناء على توقعها لحالة هذه الفئة ولعواطفها، وليس بناء على معلومات أكيدة، كما أنها توجه هذه الحملة للجميع وترجو أن تصل إلى الفئة التي تستهدفها، وبالطبع أحيانا تكون التوقعات خاطئة، وأحيانًا لا تصل الحملة التسويقية أصلًا إلى الفئة المستهدفة وبالتالي تضيع هباء، إذ أنه لن يتأثر بها أي من الفئات الأخرى لأنها ليست مصممة لتناسب تركيبهم العاطفي. لكن الإنترنت قد حل تلك المشكلة تمامًا.. فأصبح بمقدورهم أن يرسلوا رسائل مصممة خصيصًا لكل فرد، هذه الرسائل مناسبة له بدون أدنى احتمال للخطء، ولم يصبح هناك أي خوف من أن تضل تلك الرسالة طريقها لتذهب لشخص آخر .

عز الدين: وكيف ذلك يا والدي؟!

نضال: المعلومات يا عز الدين.. المعلومات هي أغلى سلعة الآن، المعلومات تمكنك من السيطرة على الجميع، وإنك بدخولك عالم الإنترنت تجعل نفسك كتابًا مفتوحًا لهم، ليعلموا عنك كل شيء، إنهم يراقبون الجميع في كل لحظة وبدون انقطاع .

وقد زين غلاف كتاب ستيفين بيكر والذي صدرت نسخته العربية تحت اسم الرقميون بهذه الكلمات: " أنت مراقب 24/24، يعرفون عنك كل شيء، انتمائك السياسي، تحركاتك، ماذا تشتري، حتى من تحب[12] "!

عز الدين: ومن هم هؤلاء الذين يراقبوننا يا والدي؟ وماذا يستفيدون من ذلك؟

نضال: هم الشركات المتحكمة في الإنترنت.. وهم يستفيدون من ذلك جدًا، فكما قلت لك أن المعلومات هي أغلى شيء الآن، هذه المعلومات تُدر عليهم دخل بمئات المليارات من الدولارات .

إن كل نقرة تنقرها على لوحة المفاتيح كل حركة تحركها للموس بينما أنت على أحد المواقع الإلكترونية، كل رسالة ترسلها ببريدك الإلكتروني، كل مقطع صوتي أو مرئي تقوم بمشاهدته أو تحميله يسجل لديهم. "فطبقا لدراسة أجرتها

مؤسسة كوم سكور في العام 2008، أن كل شخص يزور موقع ياهوو للمعلنين يترك وراءه أثراً بمعدل 2520 إشارة ". [12]

بالطبع ليس كل هذه الإشارات ذات أهمية، لكن هناك خبراء مدَّعمين ببرامج إلكترونية معقدة، يستطيعون أن يحولوا تلك الإشارات لمعلومات مفيدة، يمكن عن طريقها عمل تحليل كامل لشخصية المستخدم، وبالتالي ترسل له الرسائل الدعائية المتوافقة مع شخصيته .

إن أكبر المواقع الإلكترونية في العالم، هي مواقع تدعي أنها مجانية، فيسبوك، جوجل، ياهو وغيرها، وإن قالت لك أحد الشركات أنها ستعطيك خدمة مجانية، فاعلم أنك أنت السلعة التي يريدون بيعها، فلا يوجد شيء مجاني. فيسبوك على سبيل المثال لديه أنظمة متطورة جدًا لمعرفة كل شيء عن مستخدميه، من موقع سكنهم وعملهم، ونوع وظيفتهم، ومستواهم المعرفي، لأكلاتهم المفضلة، لنوع الأفلام ونوع الموسيقي التي يفضلون، يستطيعون أن يحددوا الحالة المزاجية للمستخدم، حتى أنه في بيان أصدره الفيسبوك منذ فترة قصيرة أعلنوا أن في استطاعتهم أن يحددوا إذا كان المستخدم بدأ في علاقة غرامية، ويستطيعون أن يحددوا بدقة مع من بدأ تلك العلاقة، حتى قبل أن يعلم أي أحد عن

تلك العلاقة.. وحتى قبل أن يصارح كل منهما الآخر بحقيقة مشاعره.

عز الدين متعجبًا: وكيف يفعلون ذلك يا والدي؟

نضال: إنهم يتتبعون الإشارات القادمة من المستخدم، ثم يدخلونها على برامج تقوم بتحليل تلك الإشارات عن طريق مقارنتها بإشارات أخرى من مستخدمين آخرين، ولأن هناك ملايين من المستخدمين، فبالطبع ستتشابه بعض الإشارات مع بعضها، فيقومون بعمل تصنيفات لتلك الإشارات ويقسموا المستخدمين إلى فئات، كل فئة تجمعها تشابهات، ثم بعد ذلك يقوم مجموعة من المختصين في الرياضيات والاجتماع والسياسة والاقتصاد، بعمل دراسة على كل فئة ليعلموا سبب هذا التشابه بين الأفراد، حتى إذا وجدوا أوجه التشابه، قاموا بعمل ربط بين الإشارات التي أصدرها هؤلاء الأفراد وبين التشابه هذا .

ولنقل مثلًا أن هذا التشابه كان سببه أن هؤلاء الأفراد كانوا في حالة مزاجية سيئة في تلك الفترة. إذًا إن صدرت إشارات مشابهه من أحد المستخدمين بعد ذلك يستطيع الموقع أن يستنتج أن هذا المستخدم هو في حالة مزاجية سيئة .

وبالطبع كل فرد يمكن أن يصنف كتابع لمجموعة كبيرة من الفئات وليست مجموعة واحدة، وتبعًا لتلك التصنيفات، يستطيع العاملون على الموقع عمل تحليل كامل لشخصية المستخدم، حتى تصبح الإشارات التي تصدر منه بمثابة بصمة يده، وبالطبع تختلف تلك الإشارات باختلاف الحالة المزاجية والعاطفية، ويستطيع الموقع ملاحظة هذا الاختلاف، ويستطيع أيضًا أن يتعامل معه.

عز الدين: وكيف سيستخدمون تلك التصنيفات؟

نضال بابتسامة حاذقة: سيرسلون إلى كل فرد الرسائل المناسبة له بدقة متناهية وبمرونة عالية مع الاختلافات في الحالة المزاجية والعاطفية.. وذلك لأن شخصيات الناس وأفكارهم تتغير باستمرار، وهم في مقدورهم معرفة أي تغير.

فعلى سبيل المثال نفترض أن هناك فتاة جامعية هي أحد مستخدمي الفيسبوك، سيعلم الفيسبوك أن هذه الفتاة في الجامعة، وعن طريق معلومات مخزنة داخل الموقع هو يعرف ما الأشياء التي من الممكن أن تحتاجها طالبة في الجامعة، ولنفترض أنها ستكون مهتمة بالملابس والمكياج وبعض الكتب المرتبطة بدراستها، يقوم الفيسبوك بشكل أوتوماتيكي بإظهار تلك الأشياء التي يتوقع أن تحبها الفتاة

في أماكن الإعلانات على صفحتها العامة، هذا بالطبع سيزيد من احتمالية شراء هذه الفتاة لتلك المنتجات .

لنفترض الآن أن تلك الفتاة نفسها أقبلت على الزواج من شاب، سيعلم الفيسبوك هذا وسيبدأ بتغير الإعلانات التي تظهر على صفحتها، فمثلًا سيبدأ بعرض أماكن سياحية لتمضية شهر العسل، سيبدأ بعرض فساتين زفاف، سيبدأ بعرض مجموعة من العطور وأدوات التجميل الخاصة بالعرائس، وطبعًا هذا سيزيد من احتمالية شراء تلك الفتاة لهذه الأشياء .

لنفترض الآن أن تلك الفتاة تزوجت وحملت في طفل، سيعلم الفيسبوك عن طريق الإشارات التي تصل له منها أنها الآن حامل، فيغير الفيسبوك الإعلانات المعروضة، فيبدأ بعرض ملابس للأطفال، حفاضات متطورة، غرف نوم للأطفال، وبالطبع هذا سيزيد من احتمالية شراء هذه الأم المستقبلية لتلك الأشياء. وبالطبع لا يقوم الفيسبوك بعرض هذه الإعلانات بشكل مجاني، فهو يحصل على أموال كثيرة جدًا من الشركات التي تريد عرض منتجاتها لديه، حتى يعرضها لهم بالطريقة التي تجعلها تصل بهذه الدقة للمستخدم الذي من المتوقع أنه سيحب هذه المنتجات .

وفي هذه الأيام وصل الفيسبوك وغيره من المواقع لدرجة من التعقيد والتطور حتى أنك لا يمكن أن تجد تطابق في شكل الصفحة العامة بين حسابين لمستخدمين مختلفين. كل مستخدم تعرض له الأشياء بطريقة مختلفة تبعًا لشخصيته ولحالته المزاجية والعاطفية .

وبالطبع هذا لا يستخدم فقط في مجال التسويق للمنتجات وجعل الناس أكثر نهمًا للشراء.. لكن أيضا يمكن استخدامه في الترويج لأحد المرشحين في الانتخابات عن طريق عمل مجموعة مختلفة من الرسائل الدعائية تبعًا للفئات الفكرية المختلفة، ترسل لكل فئة رسائل خاصة بها تُحدث تأثيرًا عليها. فمثلا فئة العمال ترسل لهم رسائل تتحدث عن ارتفاع الأجور، المرضى وذويهم ترسل لهم رسائل تتحدث عن أن هذا المرشح سيعمل على تحسين الرعاية الصحية، التجار ترسل لهم رسائل أن المرشح سيعمل على إصلاح نظام الضرائب.. وهكذا .....

بهذه الطريقة يضمن المرشح أكبر عدد من الأصوات، لأنه بالطريقة التقليدية كالتلفزيون أو الملصقات أو غيرها، سيقوم بحملة عشوائية، فإذا استطاع أن يضم فئة معينة إلى جانبه، ستتعارض مصالح هذه الفئة مع فئة أخرى، وبالتالي لن يستطيع جمع كل الفئات حوله، ويجب عليه أن ينحاز بداعيته لأحد الفئات، لكن لو استخدم طريقة الرسائل

الموجهة، فهو يستطيع أن يرسل لكل فئة الرسالة الخاصة بها بدون أن يزعج الفئات الأخرى. وطبعًا بهذه الطريقة يمكن خداع الناخبين ودفعهم عن طريق اللعب على العواطف والمشاعر والمطامع لاختيار مرشح سيء فقط لأن لديه المال ليمول حملة بهذا الشكل .

تستطيع أيضًا تلك الطريقة التلاعب بأفكار الناس وعقائدها وتغيرها بالتدريج، عن طريق رسائل خاصة تتلاعب بمشاعر الناس وأوهامهم وشهواتهم ومخاوفهم ومعتقداتهم.. وذلك بشكل أكبر كفاءة بكثير من أقوى وسائل الإعلام التقليدية كفاءة وهو التلفزيون .

عز الدين وعلى وجهه علامات القلق: هذا يعني أن الناس يمكن استعبادهم بهذه الطريقة، وجعلهم ينفذون أوامر المتحكمون بالإعلام!

نضال يضحك ثم يقول: في الواقع.. إمكانية استعبادهم كانت موجودة قبل الإنترنت وحتى قبل الإعلام، لكن مع ظهور الإعلام والإنترنت صار الأمر أسهل وأكثر فعالية، كما أنه مع الأنترنت صار لا يمكن ملاحظة عملية التأثير والتوجيه. فإنك كنت في الماضي، لو كان لديك معرفة بأساليب الإعلام لخداع الناس، تستطيع أن تدرك أن حملة إعلامية تشن في هذا الوقت، وتستطيع أن تدرك أهدافها في وقت قصير. لكن

بعد الإنترنت صار الأمر من الصعب جدًا ملاحظته، وذلك لأن الوسائل المستخدمة في تلك العملية هي في غاية التعقيد، ولا يستطيع أن يفهمها إلا خبراء على درجة متقدمة من المعرفة ومن الذكاء، لذلك فالخداع صار أكثر مكرًا بكثير من الماضي. حتى أنهم صاروا يستطيعون أن يغيروا أفكارك، إن لم تكن متيقظ جدًا، بدون أن تلاحظ أصلًا أن أفكارك تتغير .

لقد صار في إمكانهم أن يجعلوا كل فرد جمهور في حد ذاته، تنطبق عليه كل صفات الجمهور التي ذكرها جوستاف لوبون من اللاعقلانية والتحرك طبقًا للعواطف البدائية والاندفاع وسهولة التوجيه والتحريض .

ضيق عز الدين بين حاجبيه وقال متعجبًا: إذا ليس هناك أي أمل في مقاومة ذلك التأثير الآن؟!

نضال: لا زالت الأسئلة الثلاثة التي أخبرتك لها القدرة على حمايتك، هل تذكرهم؟

عز الدين: ما الهدف من هذا الفعل؟ هل ما أفعله هذا منطقي؟ هل هو مخالف للإسلام أم متفق معه؟

نضال يتلفت حوله ثم ينظر لعز الدين ويرفع حاجبه الأيسر ويخفض الأيمن ثم يقول: لا أعلم لما لم تحضر لنا أمك

البسكوت والشاي مثل الجمعة الماضية! سأقوم لأرى هذا الأمر.. فإني محتاج لبعض الشاي والبسكوت .

يتحرك نضال تجاه الصالة، فلا يجد صمود هناك، فيتجه إلى المطبخ برفق حتى لا تسمعه فلا يجدها أيضًا، فيتجه إلى غرفة نومهما، فيجدها منشغلة بتطبيق بعض الملابس المنثورة على السرير ثم ترتبها في الدولاب، نظر نضال برفق لها من خلف الباب الموارب، وهي ترتب الملابس بينما الصغيرة جهاد راقدة على السرير تنظر إليه وتضحك، دخل نضال الغرفة بدون أن يلمس الباب حتى لا يصدر صوت فتشعر به صمود، تحرك على أطراف أصابعه، اقترب منها وقد أحست بوجوده، وبينما هو على وشك أن يمسك بها ليفزعها، قالت له: أعرف أنك في الغرفة يا نضال.. التفتت إليه ضاحكة ثم أمسكت بلحيته برقة وجذبت وجهه ناحية وجهها وتابعت: لا أعرف متى ستتوقف عن أعمال الصبيان هذه! رد: سأظل صبيًا طالما أنت معي. حنت رأسها ناحية اليسار كأنها تنظر لشيء خلف نضال ثم قالت: وما الذي يسعدك في إفزاعي هكذا أيها الرجل الصبي؟ ما الذي جاء بك إلى هنا أجئت فقط لتفزعني أم أنك تريد شيئًا آخر؟

نضال: غِبْتِ عني ساعتين فاشتقت إليكِ، وكنت أظن أنك ستأتين إلينا حاملة البسكوت والشاي مثل الجمعة الماضية، لكنك لم تأتي.

صمود: لو انتظرت خمسة دقائق كنت سآتي، لكنك عجول.. هيا لاعب جهاد حتى أصنع لكم الشاي. طبعت على خده الأيمن قبلة، ثم تركت لحيته، ومشت تتهادى برشاقة كطفلة كعادتها .

أحضرت صمود الشاي وملأت طبقين من البسكويت المصنوع في البيت، وتركتهم في المطبخ وعادت إلى الغرفة ثم قالت: هيا يا نضال خذ صينية الشاي والبسكويت، أعط طبق بسكويت وكوب شاي لأبي عابد، وخذ أنت وعز الدين الطبق الآخر وكوبا الشاي.. هيا لأني أريد أن أكمل تطبيق الملابس.. لماذا تحملق في هكذا؟ كان نضال ينظر إليها نظره طفولية بلهاء رافعا حاجبه الأيسر وخافضا حاجبه الأيمن، ثم وضع جهاد برفق على السرير، وتحرك تجاه صمود ناظرًا إليها نفس النظرة، ضحكت صمود وقالت: شكلك مضحك جدًا. خرج نضال من الغرفة إلى المطبخ ليأخذ الشاي .

بعد أن شرب نضال وعز الدين الشاي قال عز الدين: كنت قد أخبرتني أنك ستحدثني عن أحد الأفكار الحاكمة لعصرنا، ما هي؟

# العلمانية

نضال: هي العلمانية يا ولدي.. هي أحد أهم الأفكار الحاكمة لعصرنا.

والعلمانية هي فصل الدين عن الدول، وعدم تبني دين معين كدين للدولة، وعدم تدخل الدين في أي قرارات سياسية أو اقتصادية. أو بمعنى آخر كما قال المثل القديم: " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله". يمكنك أن تعبد أي إله، وأن تتبنى أي فكرة أو عقيدة، بشرط ألا تخرج تلك العبادة لتتدخل في شؤون الدولة. لذلك ففي كل الدول التي تتبني المنهج العلماني، باستثناء الدول الشيوعية، تجدهم يؤمنون بحرية العقيدة، وإن كان الأمر لا يطبق بشكل كبير، لكنه يطبق إلى حد ما .

وفي رأيي أن المنهج العلماني في الحكم هو الأفضل إذا ما قورن بكل الأديان عدا الإسلام. ذلك أن كل الأديان ما عدا الإسلام تحوي خرافات وأساطير تجعلها أقل كفاءة في الحكم، وتتسبب في سلطة دكتاتورية لرجال الدين، الذين في كثير من الأحيان تفسد ضمائرهم فيتحولون إلى ناهبين ولصوص ومستبدين، وهم يفعلون ذلك باسم الدين، ومن

يعترض على الظلم الذي يلاقيه من السهل وصمه بالكفر أو الزندقة، وذلك وضح جليًا في حكم المسيحية لأوروبا، فوجدنا رجال الدين يقومون بمذابح ضد كل من يعارضهم سواء في العقيدة أو كل من يعارض طريقة حكمهم الظالمة، وقد أعدموا وعذبوا الآلاف فيما يسمى بمحاكم التفتيش. فبعد سقوط الأندلس أقام المسيحين الأوروبيين مذابح دامية ضد المسلمين واليهود في أوروبا. حتى أن كثيرا من المسلمين واليهود قد أجبروا على اعتناق المسيحية. وكان من يُكتشف منهم أنه لا يزال على دينه، كان يتعرض لتعذيب وحشي، ثم للقتل. وكان العلماء في أوروبا يُقتلون إذا ما قالوا شيء مخالف لرأي الكنيسة.

لذلك لما قامت الثورات في أوربا في القرن الثامن عشر ضد الكنسية كان من المنطقي، أن تعادي تلك الثورات الحكم الديني هناك، لأنه كان حكمًا مستبدًا غير منطقي معادي للعلم. وكان استبدال الحكم الديني بالحكم المبني على العلم والتجربة هو أمر جيد، وقد تسبب في نهضة كبيرة لأوروبا .

وإني أرى أنه لا يوجد دين هو أكثر كفاءة في الحكم من العلم المادي، ما عدا دين الإسلام. إذ أن الإسلام في الأساس هو دين منطقي مشجع للعلم، كما أنه مبني على الكفاءات. ولا يوجد في الإسلام ما يسمى برجال الدين، بل

يوجد علماء الدين، وهم لا يؤخذ رأيهم إلا في أمور الدين. فلا تدخل لعلماء الدين في الطب ولا في الهندسة ولا في الاقتصاد، طالما لم يصدر شيء مخالف للدين .

يقول رسول الله عن تلك الأمور: "أنتم أدرى بأمور دنياكم"، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم، أحد الصاحبة عندما آتاه يطلب منه أن يعالجه من أحد الأمراض، أمره أن يذهب لطبيب. لذا فلا تعارض للإسلام مع العلم، كما كان هناك تعارض للمسيحية مع العلم.

كما أن الإسلام يختلف عن المسيحية في أنه يحتوي على نظام اقتصادي وسياسي كامل ينتظم به كل أحوال الدنيا، ويعطي للناس حرية التفكير وحرية الإبداع في نطاق المصلحة والعدل والفطرة السليمة. لذا فلا يمكن قبول العلمانية في بلد إسلامي، لأن تنحية أمر الله والتحاكم للعلم هذا في الإسلام حكمه الكفر.. هذا طبعًا إذا أغفلنا العذر بالجهل.. فالجاهل لا يُكفَّر، إلا بعد إفهامه وإقامة الحجة عليه .

فالله يقول: إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ "، ويقول: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ". لذلك فلا يمكن أن يقدم شيء على حكم الله.

عز الدين مقاطعًا: أنت قلت يا والدي، أن الإسلام لا يتعارض مع العلم، ثم قلت إنه لا يمكن التحاكم للعلم، لأن ذلك مخالف للإسلام، ألا تجد في هذا تناقضًا؟

نضال: لا ليس هناك أي تعارض.. فكرة العلمانية أنها ترفض تمامًا أي حكم ديني، ولا تقبل إلا حكم التجربة والعلم والأهواء المجتمعية، فمثلًا حرم الإسلام الخمر، تأتي العلمانية فترفض هذا الحكم لأنه حكم ديني، وتقول يجب أن يثبت لنا العلم أن الخمر سيئة حتى نحرمها.. ورغم أن العلم أثبت أن الخمرة مضرة جدًا على الصحة إلا أنهم لم يحرموها في البلاد العلمانية، فقط هي تمنع في أوقات العمل الرسمية لأن ذلك يضر بمصلحة العمل .

ما نفهمه من هذا، أنه لا تعارض بين الإسلام وبين العلم في الأمور التشريعية، لكن مشكلة العلمانية مع الإسلام هي مشكلة عقائدية وليست مشكلة تطبيقية، فالعلمانية ترفض حكم الإسلام لأنه حكم دين، والإسلام يرفض أن يقدم حكم العلم على حكم الله.. بمعنى أن الإسلام يرفض أن يختبر حكم الله، فننتظر العلم ليثبت أن كلام الله صحيح. بلا شك لا يمكن أن يخالف العلم كلام خالق العلم.. فيجب أن تلتزم بأمر الله أولًا ثم بعد ذلك إن أردت أن تعلم الحكمة العلمية لهذا الأمر فلا حرج، لكن لا رأي يعلو على كلام الله، حتى العلم. وهذا في الأمور التي ورد فيها حكم شرعي، أما في الأمور

التي لم يرد فيها حكم شرعي، كالعلوم التطبيقية كالطب والهندسة والزراعة فالإسلام لا يتدخل فيها .

ولن تجد أبدا يا ولدي، أي حكم إسلامي يعارض العلم والتجربة، فالربا الذي حرمه الإسلام وتطبقه الدول العلمانية يقول عنه علماء الاقتصاد الآن أنه يُأدي لاستعباد الناس، ويؤدي لتجمع الثروة في أيدي قلة غنية بينما تزداد أعداد الفقراء ويزداد فقرهم. فالإسلام فيه حكم الله ولا يمكن أن يسبق عقل البشر حكم الله، مهما بلغوا من العلم .

فالعلم يا ولدي قاصر لمعرفة الحقيقة الكاملة، كما أنه لا يمكن أن يعتبر الحكم العلماني حكم موضوعي إذ أنه تحكمه الأهواء والمواءمات ولا يحكمه العدل والحق، كما أن آراء الناس وطرق تفكيرهم مختلفة، فما الذي يدريك أي الآراء هي الحق .

إن التجربة الإنسانية ومبدأ المنفعة والعلم المادي الذي ترتضيه العلمانية كمصدرها الأساسي للحكم لا يصلح إلا إذا كان في نطاق حكم الله، أما إن تُرك الأمر لأهواء الناس، فلن يجلب على البشرية إلا الويلات والمصائب. والقرن الماضي خير دليل على هذا، فتحت حكم العلمانية قُتل في مئة عام أكثر من كل من قتل بسبب الحروب في تاريخ البشرية كلها .

يقول على عزت بيجوفتش: " التعليم وحده لا يرقى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية. إن العلم يجعل الناس أكثر قدرة، أكثر كفاءة، أكثر نفعاً للمجتمع. لقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمون والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا أيضاً خداما للشر، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة .

إن تاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنّت حروباً استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة أقل تعليماً، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم. إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم" [13]

عز الدين: تقصد يا والدي، كمثل ألمانيا النازية، التي تم السيطرة على شعبها المتعلم وحتى العلماء منهم بواسطة الإعلام، وتم دفعهم لحرب خاسرة تسببت في قتل الملايين .

نضال: أحسنت يا عز الدين، وليس هذا هو المثال الوحيد، فلقد قام الأوربيون الأكثر تعليما وتحضرًا بمذابح هائلة في حق السكان الأصليين في أمريكا، بل قاموا بإبادتهم تمامًا وذلك بهدف احتلال أرضهم، وغيرها من الأمثلة التي تثبت أن مستوى تعليم الناس لم يجعل منهم أكثر عدلًا ولا أكثر

إنسانية، ولا أكثر قدرة على مقاومة الخداع والبعد عن حكم الهوى .

إن ترك الأمر لمبدأ المنفعة والتجربة يجعل الناس عرضة لأهواء السياسيين والطغاة أن يخدعوهم ويدفعوا بهم في المهالك من أجل تحقيق مكاسب شخصية لهم.

خرافة العصر

لقد صار العلم المادي يا بني هو خرافة هذا العصر، فالعلم المادي رغم أهميته في تحقيق رفاهية الناس، إلا أنه لا يصلح أبدًا كما أخبرتك أن يكون المصدر الأساسي للتشريع. ولقد روج الإعلام لفكرة العلمانية وحُكم التجربة والمنفعة والعلم المادي أشد ترويج، حتى صار الناس يعبدون العلم من دون الله، فصار يُروج لأقبح الأشياء بسم العلم. فيكفي أن يُكتب تحت خبر كلمة "دراسة علمية تقول" حتى يصدقها أغلب الناس ويدافعون عنها كأنها حقيقة مطلقة حتى بدون أن يقرأوا أو يدرسوا مدى صحة تلك الدراسة أو قوتها .

وصارت فكرة التحرر التي روجت لها العلمانية تعني تخلي الناس عن العفة وعن الخُلق وعن الطهارة وعن الحياء وعن

المبادئ. فإياك يا ولدي أن تصدق ادعائهم الكاذب بأن الحرية هي مرادف للخلاعة والفجر وتحليل الفواحش...

فما الحرية إلا التحرر من العبودية لغير الله، التحرر من العبودية للبشر وللمؤسسات وللشهوات. الحرية هي معنى داخل الإنسان مرتبط بروحه نابع منه، فلا يمكن أبدًا أن تصادر أو تحجب أو تقيد، مهما حاول المستبدون انتزاعها، فلن تنتزع منك حتى تتركها لهم.. حتى تعطيهم حريتك وتتبعهم في باطلهم وبعدهم عن الحق .

عز الدين: إذًا أنت ضد أن يتدخل العلم المادي أو التجربة في الحكم؟

نضال: أنا ضد أن يقدم العلم على حكم الله، فلا مانع من استخدام العلم المادي والتجربة في الأشياء التي لم يصدر فيها حكم من الله والتي تركها للناس، بل إن في هذه الأشياء يجب أن يستخدم العلم المادي والتجربة.. ولا بديل عنهما.

أما أن يترك الناس إلى أهواءهم ويتحاكموا لغير الله، حتى ولو للعلم، فإن هذا لن يؤدي إلا لدمار أكبر حتى من الدمار التي تحدثه الخرافات، لأن المتعلم إن صار مجرمًا يكون أكثر كفاءة في إجرامه من الجاهل.. كما وضحت لك منذ قليل عن المجازر التي أقامتها العلمانية في القرن الماضي،

والتي فاق ضحاياها كل ضحايا حروب الأرض من وقت أن خلق الله آدم .

إن العلم لا يخبر الناس إلا عن ظواهر الحياة المادية، لكنه لا يخبرهم عن بواطن الأشياء ومعانيها الحقيقية، فنظرة العلم نظرة وصفية سطحية للأشياء ولا يمكن أن تخبر البشر بالحقيقة الكاملة.  لذا لابد من الإسلام، لا بد من حكم الله حتى يظهر للناس ما خفي عنهم في الدنيا.. وما خفي عنهم في الآخرة. إذ أن العلم وإن أخبر الناس ببعضٍ قليلٍ من الدنيا فكيف يخبرهم، عن الآخرة وعن خالقهم.

إن العلم قاصر حتى أن يخبر الإنسان عن حقيقته وعن سبب وجوده، وعن سبب وجود الأشياء حوله، وهو قاصر أن يساعد الإنسان على فهم نفسه، فالعلم لا يبحث في السبب وإنما يبحث في ظواهر الأشياء وكيفية عملها، وهذا لا يفيد إلا في زيادة التكنولوجيا ولا يفيد أبدًا في الوصول إلى الحقيقة .

وحتى استخدام التجربة ومبدأ المنفعة لا يمكن أبدًا أن يصل بالإنسان إلى مكان أفضل، لأن هذا يعود لأهواء الناس وآرائهم، وهي ضالة تحكمها العاطفة والوهم والمخاوف. كما أن التجارب الفاشلة والتي من المفترض أن تخبرنا أن المسار الذي سرنا فيه خاطئ تكون ذات خسائر هائلة، ثم

أنها لا تخبرنا بالمسار السليم، فقط هي تعلمنا أن المسار الذي سرنا فيه خاطئ، ولا معلومة أخرى. وإن تبعنا طريقة التجربة والخطء تلك لن نصل أبدًا لصورة كاملة للحق قبل أن تباد البشرية برمتها، وهذا حتى لو افترضنا أن يكون حكم الإنسان موضوعيا على الأشياء وبعيدًا عن الهوى والعواطف .

لذا فلا يمكن للإنسان أن يصل للحقيقة سواء عن طريق العلم، أو عن طريق التجربة والخطأ.. لا يمكن للإنسان أن يصل للحقيقة إلا عن طريق خالقه، إلا عن طريق الله .

واسمع قول الله -يا عز الدين- واصفاً هؤلاء الذين لا يتبعون سوى العلم المادي والتجربة والمنفعة الظاهرية، يقول تعالى جل شأنه: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا."

وكم هو عظيم يا ولدي وقع هذه الآيات وحكمتها. يقول الله في البداية أن أكثر الناس لا يعلمون، ثم يصرح أن هؤلاء الذين لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، ولا أجد أجمل من ذلك الوصف وصفاً، لهؤلاء الذين يعبدون العلم، ولا يؤمنون إلا بالتجربة، فهم لا يعلمون شيء، وإن كانوا يعلمون ظاهر الأشياء، فبواطن الأشياء أعمق وأشد أثراً من

ظواهرها التي لا تعدوا سوي القشرة. ما أقصر نظر هؤلاء، يا ولدي، ما أقصر نظرهم، يغفلون عن الحقيقة بشيء من الزيف.. ثم يتكبرون بمعرفتهم عن هذا الزيف .

عز الدين: وكيف نصل للحقيقة يا والدي؟

نضال: بالإسلام يا عز الدين، فالإسلام هو العلم الأعظم وهو الحقيقة الأهم، هو الذي يخبرك عن سبب وجودك والطريقة المثلى لحياتك، والطريقة المثلى لموتك، وهو الذي يؤهلك للسعادة في الدنيا، ويضمن لك السعادة في الآخرة.. والأهم من كل ذلك أنه يخبرك، بحق، من أوجدك.

كل العلوم الأخرى تفنى -يا ولدي- بفناء الدنيا، فقوانين الدنيا المادية وفيزياءها لن تبقى طويلًا وستمحى او ستتغير بفناء الدنيا، أما الإسلام فأثره باقٍ عليك إلى ما لا نهاية. لذا فليس من العقل أن تشغل نفسك بالفاني عن الباقي.

عز الدين: وما الذي يجعلني متأكدا أن الإسلام هو الدين السليم وليست المسيحية أو أي دين آخر أو حتى العلمانية؟

نضال: يجب عليك أن تفكر وتبحث أين الحقيقة، فهو السؤال الأهم. والبحث عن الحقيقة هي المعركة الأصعب في الحياة.

يسكت نضال ويتنهد وقد بدت عليه علامات التعب ثم يقول: يكفي هذا لليوم.. نكمل الجمعة القادمة إن شاء الله.

عز الدين: لكن لا زالت لدي تساؤلات أريد أن أسألك عنها، فكلامك هذا جعلني مشتت وحائر.

نضال: إذًا فكر وحاول أن تجد أجوبة على أسألتك، والجمعة القادمة، إن كانت لديك أشياء لم تجد لها جوابًا، يمكننا أن نتناقش فيها بإذن الله.

هيا يجب أن نتناول الإفطار فالساعة الآن العاشرة ونريد أن نتجهز لصلاة الجمعة.

قام عز الدين مع والده، وهو يحمل داخله الكثير من الأسئلة، وفي عينيه تسكن كمية هائلة من الحيرة، وكأنه قد ألقي في صحراء بدون بُصلة .

جلسة مع الجد

بعد صلاة العصر، جلس الجد لختم الصلاة في المسجد وأسند ظهره على أحد العمدان في آخر المسجد، وذهب عز الدين ليجلس بجانبه، كان عز الدين لا يزال واقعًا في

الحيرة، تراوده أسئلة بسبب كلام والده معه في الصباح. وقرر عز الدين أن يسأل جده عن تلك الأسئلة لأنه لا يطيق الانتظار للجمعة القادمة، وبعد أن أنهى الجد ختم الصلاة نظر إلى حفيده بعطف ومسح بيده اليمنى على رأسه قائلًا: هل لديك حاجة يا عز الدين، تريد أن تطلب طلبًا، أو تسأل عن شيء؟ أراك مضطرب. رد عز الدين: أريد أن أسألك بعض الأسئلة يا جدي. الجد يبتسم ثم يقول: هات ما عندك يا ولدي.

بدأ عز الدين بسؤال كان قد رواده لتوه بينما هو راكع في الركعة الثانية في الصلاة فقال: لماذا نصلي؟ أعني ما الذي يجعلنا نقوم بتلك الحركات ونقول هذا الكلام الذي نقوله في الصلاة؟ ما الذي يفيدُنا أو يفيد غيرنا؟

الجد يضحك، ويحرك رأسه يمينا ويسارًا ببطيء، ثم يعاود النظر إلى عز الدين، يضع يده على ذقنه، يفكر لبرهة بينما يركز نظره على عز الدين، وعز الدين مترقب الإجابة، أخيرا ينطق الجد قائلًا: امممم.. سؤال جميل يا عز الدين، يعجبني فيك أنك تفكر يا ولدي.. استمر على هذا.. فكر لتعلم حكمة الله من الأشياء، لكن لا يدفعك ذلك للشك في أن ما يأمرك الله به هو الحق والخير لك، التزم بأمر الله واخضع له ثم بعد هذا فكر في حكمة أمره .

أما عن سؤالك فقد أجاب الله عنه في كتابه العزيز فقال الله:
"لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ."

الآية يا ولدي توضح المعنى العظيم الذي قاله سيدنا عمر - رضي الله عنه- عندما قال للحجر الأسود بعد تقبيله، " لو لم يأمرني الله بتقبيلك ما قبلتك "

الطواف حول الكعبة، حركات الصلاة، رمي الجمرات، كل هذه أعمال في حد ذاتها ليست من البر، إذ أنك لو قمت بها نفسها بدون نية التعبد لله تفسد، وتكون غير مقبولة. لكن هذه الأعمال تتحول لبر فقط، إن كانت بنية الخضوع والاستسلام لأمر الله، فالتعبد هنا هو طاعة أوامر الله، والالتزام بالعبادة التي أوحى لنا بصورتها وكيفيتها، فنحن نفعل ذلك إذعانًا منا أننا خاضعين لأمر الله ومستسلمين له. والصلاة يا ولدي تصح بدون تلك الحركات إن لم تكن في مقدورك أن تقوم بها، فالمريض، عافاك الله من المرض، تصح صلاته ولو كان راقدًا لا يتحرك، تصح صلاته بنيته فقط.

فعندما يأمرك الله بتقبيل الحجر الأسود فأنت تقبله، ليس تقديسًا له في ذاته، وإنما لأن الله أمرك بهذا. لذلك فالأمر

في العبادات توقيفي ولا يخضع للمنطق، لأن منطقه الوحيد، هو الخضوع لله وطاعة أوامره. بالتالي فهذه الآية التي تلوتها عليك منذ قليل، والتي يخبرنا الله فيها أن مجرد التوجه للبيت الحرام في الصلاة ليس هو البر، لكن البر الحقيقي هو الإيمان بالله. فهي تُظهر ذلك المعنى الذي وضحته لك منذ قليل في أبهى صورة، وهو معنى الإسلام.. الاستسلام والخضوع لأمر الله .

فعندما ترى الحجاج يقومون برجم الشيطان، فلا تظن أن هذا فعل فلكلوري، أو أن الحجاج يفعلون ذلك بهدف رجم الشيطان بالفعل.. وإنما هم يفعلون هذا لإظهار الإذعان والخضوع والاستسلام لأمر الله، وتصديقه في كل ما يخبر به. وهذا هو معنى العبادة وهدفها الرئيسي بشكل عام.. وإن كان للعبادات أيضًا أهداف أخرى، ولها فوائد دنيوية، لكن الهدف الرئيس هو الاستسلام لله..... هيا هات سؤالك الآخر.

عز الدين: شكرًا يا جدي فقد أرحت نفسي بإجابتك لهذا السؤال.... يسكت عز الدين قليلًا ويحك رأسه بطريقة تلقائية ثم يتابع: السؤال الثاني: جميع الناس تدعي أنهم على حق، وقد سمعت مقولة منذ فترة " أن كل شيء نسبي"، أعني، اليس هذا أقرب للواقع، فكل الناس ترى أنها على حق، إذا فالحق نسبي، أليس كذلك؟

الجد، يضيق بين حاجبيه ثم يقول بجدية :

أضل قاعدة في وقتنا الحاضر يا عز الدين، هي مقولة أن "كل شيء نسبي" ليس كل شيء نسبي يا ولدي، كثير من الأشياء نسبية لكن ليست كلها، فالحق مطلق، لأن الله واحد والله هو الحق. لكن لا يوجد أحد منا على حق مطلق، فنحن نحاول أن نقترب من الحق على قدر ما نستطيع وجميعنا نحمل بعض ضلال .

لكن هذا لا يعني بالمرة أن للحق صور مختلفة، أو أن الحق نسبي، بل يعني أن رؤيتنا للحق هي التي ضلت، ليس لأن الحق ليس واضح بل لأن الإنسان يغلبه هواه في كثير من الأحيان فإذا تحرر الإنسان من هواه بشكل كامل رأي الحق المطلق، لكن لم يكتمل سوي الأنبياء، لذا جميعنا فينا ضلال.

عز الدين: وكيف أعرف أن ما أنا عليه هو الحق؟

الجد: ببساطة فكر يا ولدي.. أنا أستطيع أن أقول لك أن الإسلام هو الحق وأني خضت تجربة فكرية كبيرة، وأنه ليس لدي شك في ذلك.. وأستطيع أن أعدد لك الآن دلائل لا حصر لها، كل واحد منها يؤكد أن الإسلام هو الحق، لا ريب، لكني أريدك أن تتأكد من ذلك بنفسك. قارن بين الإسلام وبين بقية الأديان، أنظر إلى عظمة القرآن ومدى حكمته ومدى ترابطه واتساقه، أقرأ في تاريخ الإسلام

وتاريخ الأديان الأخرى، أنظر إلى عظمة التشريعات الإسلامية وحكمتها ومدى اتساقها مع المنطق والعقل ومع الواقع.

هناك كل عام آلاف يدخلون الإسلام يا ولدي، هؤلاء خاضوا معارك فكرية صعبة جدًا، إلى أن هداهم الله إلى الحق، أما أنت فالأمر بالنسبة لك سهل، فقد أنعم الله عليك وولدت مسلمًا، فكل ما عليك أن تتأكد أن ما ولدت عليه هو الحق .

لكن يجب أن تفكر حتى لا يكون إيمانك مبني على مجرد الإتباع الأعمى، حتى لا يكون إيمانك هو إيمان بالوراثة، فالمؤمن بالوراثة هو شخص ضعيف العقيدة، يسهل خداعة ويسهل تشكيكه في دينه، ويسهل تحريف الدين في ذهنه وبث الخرافات والضلالات في عقيدته. وإنَّ بعض العلماء قالوا إنه "لا يقبل الإيمان بالوراثة". لذا فعليك أن تفكر وتعقل وتبحث حتى يكون إيمانك راسخاً مَبنياً على تصديق حقيقي، وليس على مجرد اتباع.

عز الدين: لماذا إذًا نجد الكثيرين يشككون في الإسلام، ونجد الكثير من الشباب منساقون لهذا الأمر، ومهما حاول المدافعون عن الدين إقناعهم فلا يقتنعون؟

الجد: لأنهم لم يتحرروا من هواهم، ولقد تناقشت مع بعض هؤلاء الشباب. تجد الواحد منهم يسأل السؤال فتجيبه عليه، فيبحث عن سؤال آخر ليس بهدف المعرفة والفهم، ولكن بهدف أن يحرجني أو أن يجدني لا أعرف الإجابة فيقنع نفسه أن ما هو عليه هو الحق. يجلس ليناقشك ويريد منك أن تشرح له الإسلام بشكل كامل في جلسة واحدة .

وما يدعوا للسخرية هو أن الواحد من هؤلاء الشباب يظل أربعة أشهر يدرس في خمس مواد لا يزيد عدد صفحات الكتاب الواحد لكل مادة عن ثلاثمئة صفحة، وإن فهم من تلك المادة خمسون بالمئة فإنه يضمن الامتياز، ويخرج مفتخرًا بعقليته وفكره وذكائه واجتهاده لأنه فهم هذه المواد البسيطة بنسبة خمسون بالمئة في أربعة أشهر .

لكن إن أتى للإسلام، هذا الدين الكامل الذي تنتظم به كل أحوال الحياة، أراد منك أن تشرحه له بشكل كامل في جلسة واحدة، وإن لم تفعل ذلك يقوم ليقول بصدر منفوخ أنا لست مقتنعًا بالإسلام فهذه الجزئية لم تقنعني، رغم أنني أكون قد أجبته على عشرات الأسئلة، ودحضت له عشرات الشبهات. فمن – يا ولدي- يستطيع أن يفهم الإسلام بشكل كامل! لقد كُتب في علوم الإسلام مجلدات إن وضعت في قصر ملأته عن كامله وفاضت عليه، وهذه المجلدات كلها رغم كثرتها وتعدد وعمق مواضيعها إن قرأتها كاملة وفهمتها كاملة، لن

تكون قد فهمت الإسلام بشكل كامل. فالإسلام هو دين الله المعجز وليس لمخلوق القدرة أن يسعه علمًا بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

لكن هؤلاء المتنطعين ليبرروا لأنفسهم غيهم وهواهم، يتحججوا بحجة أنهم لن يتبعوا الإسلام حتى يفهموه بشكل كامل. والباحث عن الحق يعلم أنه يكفيه من الإسلام ما يطمأن به قلبه، ثم بعد ذلك يتبع، راجيًا من الله أن يفتح عليه بالفهم والفقه تدريجًا. إنه لا يمكن لإنسان أن يصبح مهندسًا في يوم، فكيف يمكن أن يظن إنسان أن في مقدوره أن يعي دين الله الكامل في يوم، إلا إن كان متنطعًا يبغي الجدل والسفسطة لمجرد الجدل والسفسطة. والأعجب أن هؤلاء المتنطعين، يعيدون نفس الشبهات في كل جلسة مهما تم دحضها، وتجد أن أغلبهم يقول نفس الكلام وكأنهم ينقلون من كتاب واحد .

يا ولدي إن كنت تبحث عن الحق بعيدًا عن الأهواء، فأعلم أنه يكفيك من الإسلام فهم ما يطمأن به قلبك أن هذا هو دين الله وأنه حق، ثم بعد ذلك عليك بالاتباع والإذعان في الأمور التي لم تستطع إدراكها. فإن العقل السليم يقول، أنه إن أثبتت صحة الدين من أحد الأوجه فإنه لابد أن يكون صحيحًا من كل الأوجه، ويفتح الله على كل إنسان أن يدرك صحة الدين من طريق مختلف، ولا يمكن لأي إنسان أن

يعي كل الطرق التي تؤدي للوصول للخاتمة أن هذا الدين من عند الله.

ففكر وابحث حتى يطمأن قلبك بإنَّ هذا الدين هو بحق من عند الله، فإن حدث ذلك فيجب أن يستقر في ذهنك أن الله الخالق المبدع لا يمكن أن يخطأ، لذا فإن التبس عليك أمر من أمور الدين فتأكد من نسبته لله أولًا، فإن تأكدت من أنه بالفعل من عند الله، فالتزم بأمر الله موقنًا في نفسك أنه حق، حتى ولو لم تفهم هذا الأمر، إذ أنك بتفكيرك الأول قد صرت مسلما وأطمأن قلبك للإسلام، فمن السفاهة والحمق أن تحاول إثبات نفس الأمر كل يوم من طريق مختلف .

بعد ذلك – يا ولدي- تفكر واقرأ كلام الله وستجد أن الله يفتح عليك كل يوم أن تفهم شيئًا جديدًا، يزيد يقينك واطمئنان قلبك. ولا تكن يا عز الدين من هؤلاء المتنطعين الذين يريدون فهم دين الله جملة واحدة.. هؤلاء لن يدركوا إلا الضلال في الدنيا، والعذاب في الآخر لاتباعهم لهواهم، ولإعراضهم عن الحق مهما ظهرت لهم من دلائل دامغة على صحته..... يسكت الجد قليلًا ثم يتابع: هل لديك أسئلة أخرى يا ولدي؟

عز الدين بابتسامة: شكرا يا جدي... امممم، آخر سؤال: هل هناك أمسية ثقافية اليوم؟

الجد: نعم هناك أمسية ثقافية اليوم.

عز الدين: وما موضوعها؟

الجد: لا أظن أنك ستفهم، تلك المصطلحات بدون أن تحضر، لذا احضر وستعلم بإذن الله .

عز الدين: لا مانع لدي .

قام الجد وقام عز الدين، مد الجد يده يدعوا عز الدين أن يمسك بيده، مد عز الدين يده فأمسك الجد بيده.. وعادا للبيت. عاد عز الدين بغير الوجه الذي خرج به، فقد زالت عنه الحيرة.

## خلاف بين نضال وصمود

بعد صلاة العشاء عاد نضال إلى البيت ليصطحب صمود إلى الأمسية الثقافية بينما انتظر عز الدين مع جده في المسجد. كانت صمود قد اشترت عباءة جديدة، أرادت أن تحضر بها الأمسية. طرق نضال الباب بطريقة تعرفها صمود لكي يُعلمها بحضوره، حتى لا يفاجئها في موضع لا تحب أن يراها فيه.. انتظر قيلًا ثم فتح الباب، دخل ثم نادى

صمود أن تأتي ليخرجوا. ردت: لحظة واحدة سأنهي ارتداء الطرحة ثم سآتي. ابتسم نضال ثم قال في نفسه: الطرحة.. إذًا ستستغرق تلك اللحظة ساعات. بعد عدة دقائق خرجت صمود من الغرفة مرتدية عباءتها الجديدة وهي تحمل جهاد في حضنها .

نظر إليها نضال باستغراب وقال: ما هذه العباءة؟

ابتسمت صمود وردت: هل لاحظتها يا حبيبي! إنها عباءة جديدة، اشتريتها منذ يومين ورأيت أن أحضر بها الأمسية.. هل أعجبتك؟

نضال بحزم وعبوس على غير عادته: أنا لا أتكلم عن كونها جديدة أو قديمة.. ما أهمني أنها ضيقة جدًا، وألوانها ملفتة للنظر. لن تخرجي بتلك العباءة الضيقة.. أدخلي بدليها بعباءة أخرى فضفاضة.. هيا.

صمود بصوت حزين: لكني لا أراها ضيقة أو ملفتة للنظر.. كما أني اشتريتها لتوي، وأحببت أن أخرج بها اليوم.. كيف أتركها وألبس عباءة قديمة.. أرجوك يا نضال.. أرجوك.. دعني أخرج بها. قالت صمود هذا الترجي بصوت متقطع متهدج بعد أن اقتربت منه ولامست بيدها اليسرى يد نضال اليمنى المتدلية بجانبه، وهي تنظر إليه نظرات نسوية

مترجية رقيقة، قليلًا ما تفشل في التأثير على الرجال وإقناعهم بأي شيء .

لكن نضال لم يتحرك ونظر إليها نفس النظرة العابسة وقال في صوت أكثر حزمًا: قلت أدخلي وبدلي تلك العباءة.. لا أريد نقاشًا أكثر.. رفع سبابة يده اليمنى وأشار إلى غرفة النوم وتابع: هيا.. لا أريد أن نتأخر.

رأت صمود أنه لا فائدة من النقاش، وأن نضال يبدو مصرًا على موقفة، فناولته جهاد برفق ثم هزت رأسها بحزن ولم تنطق كلمة أخرى، ثم توجهت إلى غرفة النوم لتبدل العباءة. وصمود تعرف شخصية نضال جيدًا فهو رغم حُنوه وعطفه إن غضب أو أصر على شيء لا يمكن إثناءه عنه مهما حدث، وهي تعلم أن العناد معه وهو في هذه الحالة يزيده عنادًا. لذا فهي الرقيقة الهادئة تمتص هذا الغضب لما يحدث بحكمة.

استغرقت عدة دقائق ثم خرجت بعباءة سوداء فضفاضة، وقالت في ابتسامة رقيقة: أتعجبك هذه أيها الفتى الغيور؟

رد نضال ولم تتغير ملامح العبوس على وجهه كثيرًا: نعم هذه جيدة.. هيا فقد تأخرنا .

مشت صمود نحوه برقة وهي تقول: طالما تراها جيدة لم هذا العبوس. طبعت قبلة على خده الأيسر ثم أكملت: فك

هذا الوجه العابس وابتسم يا رجل.. لن نخرج حتى تبتسم.. أمسكت بوجنتيه بكلتا يديها وشدتهما برقة وتابعت بصوت متهدج: ابتسم هيا.. ابتسم .

ابتسم نضال ثم ضم صمود إلى جنبه الأيسر بينما كان يحمل جهاد بيده اليمنى، ثم قبل رأس صمود.. وقال بصوت حنون: لقد ابتسمت هيا إذًا .

طبعت صمود على خده الأيسر قبلة ثانية، ثم فتحت الباب وخرج كلاهما. وبينما هم في الطريق تذكر نضال موقف صمود هذا فابتسم ابتسامة رضا، وحمد الله على تلك الزوجة العاقلة الطيّعة التي ما رأته غاضبًا أبدًا إلا وامتصت غضبه ومحته كألّم يكن في براعة يَعجب هو نفسه منها .

## الأمسية.. الشيوعية في مقابل الرأسمالية

وصل نضال وصمود إلى القاعة وكان الجد قد أنهى كلامه وأعطى الإذن لأحد الشباب الجالس على اليمين، ناول

نضال جهاد إلى صمود، فجلست هي في المقاعد المخصصة للنساء وتحرك هو سريعا ليجلس في أحد الصفوف المتأخرة في وسط القاعة، أما عز الدين فقد كان جالسًا في وسط الصف الأول.

قام الشاب الجالس على اليمين، وكان قصير القامة، جعلت الشمس وجهه شديد السمرة، مما يعرب أن عمله يضطره للوقوف في الشمس فترات طويلة، وقد كان يرتدي قميص بيج سادة وبنطال قماش أسود اللون، قام فقال في نبرة قوية وحازمه وكان كأنه يخطب: إن الشيوعية هي أسوء فكرة حدثت في تاريخ البشرية، إنها بحق عقيدة شيطانية، اجتمع فيها كل معاني الشر. ورغم أن فلاسفتها أمثال إنجلز وماركس ادعوا أنَّها ستؤدي بالبشرية إلى العدالة، أو إلى ما أسموه المدينة الفاضلة، إلا أننا عندما نبحث في المواصفات التي وصفوها للمدينة الفاضلة المزعومة نجد أنها مدينة شيطانية بكل المقاييس، فلم يتورعوا أن يذكروا علانية أن مدينتهم الفاضلة يجب أن تخلوا من الدين والخلق وحتى الروابط الأسرية.

ربما هم استقوا فكرة المدينة الفاضلة من الفيلسوف الأول للشمولية أفلاطون، لكن أفلاطون أبدًا لم يصل في مدينته إلى هذا الحد من الشمولية والشر التي تبرز من الصفات التي وصفو بها مدينتهم المزعومة .

ربما لأنهم بخلاف أفلاطون آمنوا بأن الإنسان ما هو إلا واحد من الحيوانات، وأسسوا فكرهم الشيوعي على ما يسمى بمذهب الديالكتيكية المادية. وهم يرون طبقًا لهذه الفلسفة أن الكون مبني على الصراع والجدال المستمر، وأن كل الكائنات بما فيهم الإنسان يجب أن تتصارع، والأقوى هو من يفوز ويبقى .

لذا فقد عادت الشيوعية الأديان جميعًا ووصفوها بأنها أفيون الشعوب، والواقع أنهم عادوها فقط لأنها ترى في الإنسان كائن مختلف عن الحيوانات، وترى أنه لابد أن يتحلى بالخلق والعاطفة، بينما تنبذ الشيوعية المادية كل هذا .

لكن الفلاسفة الشيوعين ظلوا يبحثون عما يؤيد حجتهم، ويستطيعون من خلاله أن يروجوا لفكرتهم الشيطانية، وتزامن ذلك مع ظهور نظرية التطور لدارون. فتلقاها الشيوعيون بترحاب بالغ ورأوا فيها الجانب العلمي لفلسفتهم. وبدأوا يروجون لها في كل مكان، فهي تؤكد اعتقادهم أن الإنسان ما هو إلا واحد من الحيوان، كما أنها مبنية على فكرة الصراع التي ترى فيه الشيوعية المبدأ الحاكم للكون، والأهم من ذلك أنها تعطي بديل لفكرة الخلق، وبالتالي تجعل فكرة وجود إله ليست ذات أهمية. فالإنسان في نظر الداروينية وفي نظر الشيوعية مجرد كائن ظهر بالصدفة مثله مثل بقية الحيوانات .

وكي لا أطيل عليكم في شرح الأساس الفكري الخبيث للشيوعية والذي بُني على فكرة المادية النفعية وإنكار الإله وحرب الأخلاق وقطع الروابط الأسرية، يمكنكم أن تعودوا لكتبهم لتتأكدوا منه بسهولة، وأتحدى أي واحد من أنصار الشيوعية في القاعة أن ينفي كلمة مما قلتها، وكيف ينفونه وهم يفتخرون به ويذيعونه علانية .

إنهم اعتبروا أن الدين هو أفيون الشعوب، وقالوا إنه ترسيخ لخرافات لكي يسيطر رجال الدين على الناس ويسرقوا أموالهم، واعتبروا أن الشيوعية ثورة ضد الرأسمالية التي تسرق أموال الناس، وأن الشيوعية ستعيد الرخاء للناس وستبني المجتمع الفاضل. فلن أقتبس من كتبهم لأثبت لكم أن فكرهم من الأساس عكس ذلك، لكني سأبدأ بسرد أفعالهم وهي في الواقع أشد شرًا وشيطانية من الكلام المكتوب في كتبهم .

نظر الشاب إلى أسفل وكأنه يلقى نظرة في بئر عميق يبحث فيه عن ماء، سكت قليلًا ثم تابع:

لما حدثت ما تسمى بالثورة البلشفية في روسيا سنة 1917 بقيادة لينين وسيطروا على الحكم في روسيا، ورغم أن تلك الثورة نفسها كانت في غاية الدموية.. لكني لن أتكلم عن ذلك على اعتبار أنهم كانوا في حرب ضد الرأسماليين الأشرار

وأنهم ما فعلوا تلك الجرائم إلا لإعادة العدالة، لكن لننظر كيف أعادوا العدالة وبنو مجتمعهم الفاضل بعد سيطرتهم على الحكم .

أول ما سيطر لينين على الحكم وبمجرد أن أنهى الاحتفال بانتصار ثورته المجيدة أصدر قرار بمصادرة أموال الرأسماليين لتصبح تحت تصرف الدولة.. لكن لننظر من كانوا هؤلاء الرأسمالين؟ هل كانوا سكان القصور كما يظن المنخدعون بشعارات الشيوعية؟

لم يكونوا سكان القصور، بل كان القرار يشمل وبصفة خاصة الفلاحين الفقراء، حيث أصدر لينين قراره بأن يدفع الفلاحين جزء من محاصيلهم للدولة، فأجبر الفلاحين الفقراء على دفع معظم محاصيلهم للدولة، التي لم تكن أصلًا تكفيهم قبل الثورة البلشفية المجيدة.. مع أنه كان من المفترض طبقًا للدعاية الشيوعية أن يأخذ الأموال من الأرستقراطيين الأشرار ليوزعها على العمال والفلاحين الفقراء، لكن ما حدث أنه استولى على أموال الجميع، ولم تسلم منه محاصيل الفلاحين الفقراء. وكل من حاول مقاومة أن يُسرق قوت أولاده من الفلاحين كان يُنَّكل به أو يقتل من قِبَل ما سُمى بالجيش الأحمر وعناصر شرطة جاكا التابعة للينين. [14]

وقد تسببت تلك المصادرة للمحاصيل في حدوث قحط سنة 1921 واستمر لمدة عام كامل، أسفر هذا القحط عن موت ما يقرب من خمسة ملايين إنسان أغلبهم من الأطفال بعد أن تضوروا جوعًا .

الأكثر غرابة أن لينين لم يشعر بأي تأنيب ضمير على هذا القرار بل اعتبره انتصارًا فالناس طبقًا لعقيدته مجرد نوع من الحيوانات، والحيوانات تأكل بعضها طوال الوقت، كما أنه رأى في ذلك القحط انتشارًا لأيديولوجيته، حيث أنه سيتسبب في كفر الناس بالإله، وبالتالي سيزداد عدد المؤمنين بالعقيدة الشيوعية المادية .

وهذا في رأيي منطقي جدًا، فلينين الذي لم يكن لديه أي إحساس بالإنسانية، والذي كان يرى أن الإنسان مجرد حيوان، وأن الكون مبني على الصراع، من الطبيعي ألا يأبه بموت الملايين جوعًا بل يجد في ذلك انتصارًا......

يقاطعه الجد عابد قائلًا: آسف أخي العزيز على المقاطعة، لكنك قد استغرقت في كلامك أكثر من عشرة دقائق، لذا يجب أن ينتقل الميكروفون لفرد آخر، ويمكنك أن تعاود الكلام بعد ذلك إن سمح الوقت... شكرًا لمشاركتك المثمرة.

من يرغب في الحديث فليتفضل برفع يده.

يرفع مجموعة من الشباب الجالس في يسار القاعة أيديهم، فيسمح الجد لأحدهم بالكلام، يقف الشاب وهو متوسط القامة، بشرته بيضاء، شعره ليس ناعمًا لكنه مصفف بشكل جيد للخلف، يرتدي تيشرت أزرق مزخرف ببعض الصور والكلمات، كما يرتدي بنطلون جينز أسود، يقف ثم يقول بنبرة خطابية عالية وكأنه يخطب في ميدان: لا أعلم كيف علم زميلي الذي تكلم منذ قليل، أن لينين كان سعيدًا بتلك المجاعات، هل كان جالسا معه قبل ما يقرب من قرن وقال له لينين ذلك!! وإني لأرجح أن تلك المجاعات كانت غير مقصودة، وحدثت نتيجة الاضطرابات التي تحدث في بداية حكم أي ثورة، كما أنها ربما حدثت بسبب عدم فهم الشعب في هذا الوقت للشيوعية بشكل سليم.

أما عن تبني الشيوعية لنظرية التطور ونظرتها للإنسان، فتلك النظرية تُدرس كحقيقة علمية في كل الجامعات في الدول الرأسمالية. فلماذا تعيبون على الشيوعية أنها تبنتها إذًا؟! ألأنَّ فلاسفة الشيوعية وسياسيها كانوا أجرأ من حكام الدول الرأسمالية، وأعلنوا أن تلك النظرية يجب أن تكون أساس للمعاملات الإنسانية. أما حكام الرأسمالية فهم ينافقون رجال الدين خوفًا على مناصبهم. يخافون أن يعلنوا الحقيقة.. أن الإنسان هو مجرد خلف للحيوان، وأنه لن ينصلح حاله ولن يصل إلى الرخاء وإلى المجتمع القويم إلا

إذا عاش طبقًا لقوانين الطبيعة والتي يعد الصراع والتنافس على البقاء أهمها .

أما عن المجاعات التي حدثت تحت حكم الشيوعية، فالرأسمالية تسببت في عدد أكبر من المجاعات. فلطالما كان البحث عن المال هو نهم الرأسمالين الأول حتى ولو مات بقية سكان العالم جوعًا، ولهذا السبب حاربتكم الشيوعية لكي تتصدى لهذا الظلم. وهناك عشرات الأمثلة لمجاعات تسببت فيها الرأسمالية، منها على سبيل المثال مجاعة إيرلندا والتي حدثت بين 1845 و1852، وكانت جراء استبداد ملاك الأراضي الأيرلنديين ضد الفقراء، فقد استولى ملاك الأراضي على حصص الفقراء الزراعية وضموها لأموالهم حتى تسبب هذا الجور في مجاعة أودت بحياة ما يقرب من مليوني إنسان. [15]

وحدثت أيضاً مجاعة في البنغال سنة 1770 أودت بحياة عشرة ملايين إنسان، وذلك بسبب ممارسات شركة الهند الشرقية البريطانية والتي كانت تحكم البنغال في فترة المجاعة، وهي شركة تابعة لبريطانيا الإمبريالية الرأسمالية، وقامت هذه الشركة بجباية الضرائب من الفلاحين الفقراء، ولم يكن يهمها سوى أرباحها بغض النظر عن موت الناس، وقد أجبرت الفلاحين على دفع 50% من محصولهم للشركة كضرائب، كما أنهم دمروا كثيرًا من الحقول الزراعية في

البنغال بهدف زراعة الأفيون مما زاد معاناة الفلاحين وتسبب في نقص الحبوب.

كما أنهم منعوا المزارعين من تخزين الحبوب لمواجهة فترة الجفاف والذي كان يحدث في بالبنغال بشكل معتاد ولا يؤدي إلى مجاعة، لكن لما حدث الجفاف أثناء حكم شركة الهند الشرقية البريطانية مات كل هذا العدد من الناس، وذلك بسبب سعي الرأسمالية النهم لجني الأموال حتى ولو على جماجم الناس، فحتى لم يتورعوا ويحسنوا من سياساتهم ويقللوا الضرائب أثناء فترة القحط بل أجبروا الناس على دفعها بقوة السلاح، كما احتكروا الحبوب، وكان نتيجة ذلك أن حدثت مأساة من أفظع المآسي الإنسانية في التاريخ. [16]

أما عن الأفيون التي زرعته بريطانيا في البنغال وفي مناطق أخرى، فهو أيضًا له قصة مبكية من قصص الاستبداد الرأسمالي الإمبريالي. فقد كانت إنجلترا تصدر الأفيون للصين، حتى أصبح معظم سكان الصين مدمنين، وعندما رأى حاكم الصين أنه يجب حظر استيراد الأفيون لأنه يتسبب في الإضرار بشعبه، شنت إنجلترا سنة 1888 حربا على الصين لإجبارها على استيراد الأفيون، لأن ذلك كان يُدر عليهم أموالًا طائلة، وأجبرت بقوة السلاح الصيني على استيراد الأفيون منهم. هل هناك استبداد أكثر من ذلك!

تشن دولة حربًا على دولة أخرى لأنه رفضت أن تستورد منها المخدرات، هذه هي الرأسمالية بوجهها القبيح الذي يغفل عنه الكثيرين. [17]

يسكت الشاب ويشكر الجد على إعطائه الكلمة، فيشكره الجد عابد على كلامه المثمر، ويعطي الفرصة للجهة الأخرى للرد، فيقوم أحد الشباب الجالس على اليمين وهو شاب طويل القامة بشرته بيضاء يشوبها حمرة، يرتدى جلباب فلاحي بني، لكن يبدو على وجهه أنه متعلم، يقوم ثم يقول بصوت رزين وهادئ: لا أنكر حدوث بعض المجاعات والجرائم على يد بعض الرأسمالين، لكن أظنها حالات فردية لا تعبر عن الرأسمالية بشكل عام.. فالرأسمالية ليست عقيدة كالشيوعية، الرأسمالية هي مجرد أسلوب اقتصادي، فهي تعتمد على الشخص الذي يطبقها، فإن كان شريرًا صارت شريرة، وإن كان صالحًا صارت صالحة .

أما الشيوعية فهي عقيدة كاملة، عقيدة مبنية على الكراهية والصراع والدماء، بالفعل تُدرس الرأسمالية التطور في الجامعات كحقيقة علمية، لكنها لا تُدرس الكراهية والحقد والصراع كما تفعل الشيوعية. أما عن أن الرأسمالين لا يريدون تطبيق نظرية دارون خوفًا من رجال الدين فهذا كلام ليس عليه أي دليل .

فهل يشترط في رأي الشيوعية أن تعامل الدول الرأسمالية الناس كحيوانات حتى تصبح مطبقة لنظرية التطور!

أما عن أن الشيوعين كانوا من الجرأة بحيث أنهم حاربوا الأديان ورجالها، فلا أعلم كيف تصل بالشيوعين الجرأة أن يفتخروا بجرائمهم بهذا الشكل. يقتلون الناس، ويكبلون الحريات، ويرفضون تعدد الفكر ثم يدعون هذه شجاعة.

لقد قالت الشيوعية أن الدين أفيون الشعوب وطفقت تحاربه هو والقائمين عليه، ثم وجدناهم يستبدلون الأديان القديمة التي تدعوا للتسامح والرحمة بدين جديد، يدعوا للكراهية وسفك الدماء. استبدلوا الكتب المقدسة بكتب أخرى قدسوها، فكتاب دارون للتطور هو عند الشيوعية مقدس، وكتب ماركس ولينين وإنجلز وغيرهم من فلاسفة الشيوعية وقادتهم هي مقدسة، حتى أن خطب ماو تسي تونغ وضعت في كتاب واعتبر كتاب مقدسًا .

ومن يظهر أي اعتراض أو استهزاء بهذه الكتب في دولة شيوعية يكون مصيره القتل بتهمة معاداة الشيوعية. فهل هذه هي العدالة التي ادعت الشيوعية أنها ستحققها بعد تدمير الأديان. ثم أن الشيوعية استعاضت عن الآلهة بآلهة جديدة هم فلاسفة الشيوعية وسياسيها فحنطت جثثهم واعتبروا مقدسين حتى أكثر من الباباوات المسيحين. إن الشيوعية

هي عقيدة جديدة مبنية على الكراهية والدم والاستبداد، صورة كاملة لكل معاني الشمولية .

أما عن المجاعات التي أحدثتها الشيوعية فلا يمكن اعتبارها حدث استثنائي ناتج عن الاضطرابات في أول الحكم، فلا توجد دولة دخلتها الشيوعية إلا وحل عليها القحط والمجاعة .

فلنترك لينين وجرائمه جانبًا والتي يشيب شعر من يسمع قصصها ونمضي لنرى روسيا الشيوعية بعد وفاة لينين. ولم يكن أكثر جرمًا وشرًا ومعاداة للإنسانية من لينين إلا تلميذه وخلفه ستالين. فقد قتل ستالين خلال فترة حكمه 40 مليون إنسان وذلك على أقل التقديرات. فبمجرد أن سيطر ستالين على الحكم، كان أحد أول قرارته مصادرة كل المحاصيل والأدوات الزراعية للفلاحين وجعلها ملكية للدولة، فلم يبقى للفلاحين شيء يأكلونه أو أدوات يزرعون بها، أدت تلك السرقة العلنية المقننة إلى مجاعة حصدت حياة ستة ملايين إنسان، كان الأطفال يموتون كل يوم جوعًا لكن ستالين لم يكن يأبه أبدا لهم.

ووصل الجوع بالناس إلى حد أنهم بدأوا يأكلون لحوم الموتى، ثم زاد الجوع حتى قُبض على البعض وقد خطف

أطفالًا صغار وأكل لحمهم بعد أن ذبحهم. لقد حقق ستالين هدف الشيوعية بأن يكون الإنسان حيوان متوحش بالفعل .

وقتل ستالين كل من عارضه، واضطهد كل المتدينين وقتل الكثير منهم خصوصا المسلمين. حتى أن رجال حزبه أنفسهم لم يسلموا من بطشه، فقد قتل ألفًا من كبار رجال حزبه، لأنهم صوتوا لغيره في الانتخابات الداخلية للحزب، وقال إن هذه مؤامرة وأعاد الانتخابات ليحصد كل الأصوات .

وكان يقتل كل معارض، حتى من كان يظهر عليه نظرات اشمئزاز من كثرة القتل كان يُقتل، ومن لا يصفق بحرارة لخطب الزعيم القائد البطل ستالين كان يقتل. فقد أراد ستالين أن يروض البشر ويحولهم إلى نسخ متشابه تتبع النظام الشيوعي بدون تفكير، وأراد هدم كل المعتقدات والأديان، واستخدم لذلك أقسى وسائل الترويض التي استخدمت للحيوانات.

ولم تكن تلك الجرائم مقتصرة على روسيا الشيوعية، فكل أرض اجتاحتها الشيوعية لم تسلم من ذلك الشر الشيطاني. فعلى قربٍ من روسيا حدثت الثورة الشيوعية بقيادة ماو تسي تونغ في الصين، وتحقق لها الاستيلاء على الحكم. وبعد فترة قصيرة جدًا أدت سياساته الزراعية لمجاعة

حصدت روح 40 مليون إنسان، وكانت بلا شك واحدة من أفظع المجاعات في تاريخ البشرية .

وقد تبع ماو نفس السياسة الشيوعية تجاه أي معارض، فقد قتل كل من اشتبه في عدم إيمانه بالشيوعية. وحرق قرى كاملة، لأنها كانت قد اعترضت على سياساته الزراعية. وقد أقر في مدارسه سياسة لفصل الأطفال عن أسرهم، ولتدمير مفهوم الأسرة عند الناس، وكون مجموعة من الشباب مغسولي العقول الذين اعتبروا ماو فوق مستوى البشر. حتى أنهم جمعوا خطبه في كتاب، وكان شباب الحزب الشيوعي لهم الحق أن يوقفوا أي فرد في الشارع ويسألوه عن بعض المقاطع من خطابات ماو، ومن لا يجيب يعتبر معادي للشيوعية ويعرض للضرب والإهانة. حتى أن هؤلاء الشباب قد سُمح لهم بضرب معلميهم وآباءهم، إن ظهر على أحدهم أي إيمان أو ممارسة للعادات القديمة التي ادعت الشيوعية أنها مخالفة لقيم المدينة الفاضلة .

يقاطع الجد كلام الشاب ويقول له أنه تجاوز العشر دقائق، ويشكره على كلامه ويشير إلى أحد الشباب الجالس على اليسار والذي كان قد رفع يده طلبًا للحديث. قام الشاب وكان نحيلًا طويل القامة، يرتدي قميصًا أبيضاً مفتوحًا إلى نصفه، وأكمام القميص مطوية إلى فوق كوعه، ويرتدي بنطال جينز أزرق غامق، وقف ثم قال في نبرة استعراضية لكنها

على الرغم من ذلك بدت صادقة: يتكلم زميلي الجالس على اليمين، وكأن الرأسمالين ملائكة والشيوعيين هم الشياطين. يقول إن جرائم الرأسمالية هي جرائم فردية وليست جمعية، رغم أنه لا توجد بقعة على وجه الأرض إلا وطالتها جرائم الرأسمالين النهمين لجمع الثروات، الغير آبهين لآلام الناس وجراحهم .

كل المجاعات التي تحدث في أفريقيا والتي يروح ضحيتها الملايين لم تحدث إلا بعد أن وطأ الرأسماليون الإمبرياليون تلك الأراضي وبدأوا في امتصاص دماء الناس، كمصاص دماء بلا قلب. وليست المجاعات الدائمة في الصومال وفي وسط أفريقيا ببعيدة، فلم تحدث إلا بعد أن وضعت أمريكيا قدمها هناك لنهب ثروات القارة الغنية التي أفقرتها الرأسمالية الإمبريالية .

إن مصاصي الدماء هؤلاء لا يكتفون فقط بسد نهمهم للثروة، بل تراهم دائمي السعي لإفقار أهل المنطقة التي يذهبون إليها، وإفساد طبيعتها، وتلويث جوها وأرضها. وليست كل مشاكل التلوث ومحو الغابات وتلويث المياه والاحتباس الحراري إلا نتائج سعي الرأسماليين مصاصي الدماء الحسيس للنهب وللسيطرة ولإفقار الغير .

إن هؤلاء لا يتورعون أن يمولوا الحروب الأهلية ويسلحوا المجرمين في البلاد التي يدخلونها حتى يستطيعوا نهب ثرواتها بدون أن تتلوث أسمائهم أو يتكبدون عناء نهب الثروات بأنفسهم، بل يجندون مندوبين لهذا الأمر، ومن الأمثلة على ذلك الماس الدموي في أفريقيا. فقد تَعَرَّض آلاف الأطفال والنساء للموت في أفريقيا نتيجة الإفقار ونتيجة الأعمال الشاقة ونتيجة الحرب الأهلية التي قطّعت أوصال البلاد لكي ينعم الرأسمالين بالماس وبالأموال الطائلة من خلف تجارته .

وقد صدر فيلم يتحدث عن ذلك الأمر من الدول الرأسمالية نفسها أسمه "الماس الدموي"، وهذا الفيلم يتناول الحرب الأهلية في أحد بلاد أفريقيا" "سيراليون"، وكيف قُتل الآلاف نتيجة هذه الحرب الأهلية، التي تشنها مجموعة من العصابات على الأهالي فيقتلون النساء ويجبرون الرجال على العمل معهم كعبيد في مهمات استخراج الماس. وإني لأعجب لهؤلاء الرأسماليين، كيف في مقدورهم أن يقتلوا القتيل ثم يتباكون عليه بهذه الطريقة، ويصطنعون البراءة والدفاع عن الضعفاء والمظلومين!

لا أعلم كيف بمقدورهم أن يتحدثوا بتلك الوجوه المصبوغة براءة ولا تكاد دماء ضحاياهم تجف من على أنيابهم الأمامية. أمريكا الرأسمالية الإمبريالية التي تدعي أنها

تحمل لواء الحرية في العالم، بُنيت على أشلاء السكان الأصليين لأمريكا. فخلال خمسمائة عام تعرض الهنود في أمريكا لعمليات إبادة جماعية، ليس لشيء إلا لسرقة أراضيهم، واستبدالهم بسكان آخرين ليس لهم شيء في تلك الأرض .

وذلك رغم أن أمريكا واسعة ومواردها لا نهائية، ولم يكن للهنود أي ضرر على وجود الغزاة الأوروبيين لأمريكا. كان في استطاعة الرأسماليين الأوروبيين أن يعيشوا جنبًا إلى جنب مع السكان الأصليين، وأن يبنوا حضاراتهم هناك. لكن مصاصي الدماء الرأسمالين يرون في أنفسهم فئة سامية عن بقية البشر، ولم يكن في مقدورهم أن ينزلوا أرضًا ثم يتركون أهلها ينعمون بالحياة. فطفقوا بدون كلل يقتلعون حياة السكان الأصليين هناك ويمحونها من ذاكرة الإنسانية. فإنهم لم يحتلوا فقط أرض أمريكا، بل أرادوا أن يستبدلوا شعبا بشعب وثقافة بثقافة .

وهذه الجريمة التي أبيد فيها شعبًا كاملًا واقتُلع من أرضه، لا نجد أبدًا وسائل الإعلام التابعة للدول الرأسمالية تأتي على ذكرها. بل نجدها تعتم على الأمر وتظهره كأنه مجرد قصة خيالية، لكنها حقيقة تظهر مدى القبح والشر الذي يكمن في قلب الدول الرأسمالية .

ثم إنهم لم يكتفوا بإبادة السكان الأصليين لأمريكا، بل خرجوا يسوقون بشرًا آخرين خارج أراضيهم، يصطادونهم كالحيوانات ثم يجبرونهم على العمل في ظروف أشد قسوة من حياة البهائم .

فقد تحرك الرأسمالين لأفريقيا يصطادون كثيرًا من أهاليها ثم يشحنونهم في السفن مقيدين من رقابهم وأياديهم وأرجلهم، موضعين في أسفل السفن جنباً إلى جنب مع البهائم. مات الملايين من هؤلاء البشر الأبرياء خلال عمليات النقل هذه وخلال عمليات الاصطياد الوحشية لهؤلاء البشر .

فقد كانوا ينزلون إلى سواحل أفريقيا يقتادون الرجال والنساء والأطفال، ومن يظهر منهم أي مقاومة كان يقتل بلا رحمة، ومن ينجوا من القتل المباشر كان يموت خلال عملية الشحن من الجوع وظروف الشحن التي لا تليق بالبهائم. أما سيئي الحظ الذين يصلون إلى أمريكا أحياء، فكان مصيرهم الاستعباد المهين لهم ولذريتهم في أسوء الظروف الإنسانية. هذه حقيقة أمريكا الرأسمالية التي يخفيها إعلامها، وهكذا بنيت أمريكا المتحضرة المتحررة على أشلاء البشر الآخرين .

وحتى بعد قرار تحرير العبيد، ظل الأوربيون الرأسماليون، يعاملون السود كنوع من الحيوانات، يعاملونهم باضطهاد فلم

يسمح لهم خلال فترة طويلة بأي وظيفة مهمة، أو بأن يلتحق أبناءهم بالمدارس. ظل هذا الوضع من سياسة الفصل العنصري لفترة ليست بالبعيدة، لكن الاعلام الرأسمالي يصورها للناس كأنها كانت منذ قرون مضت. بل إن هناك كثير من المظاهر التي تؤكد أن سياسة الفصل العنصري لا زالت قائمة في أمريكا إلى وقتنا الحاضر وحتى بعد اتفاقية الأمم المتحدة سنة 1973 باعتبار جرائم الفصل العنصري بمثابة "جريمة ضد الإنسانية ."

إن الرأسمالين لطالما برعوا في عمل الجرائم وإخفائها والظهور بمظهر الأرستقراطي الأنيق الحنون، وهم لا يتعاملون مع غيرهم إلا كما يتعامل مصاص دماء جائع مع طفل ضعيف .

يقاطعه الجد لاستنفاذه العشر دقائق ويشكره على كلامه، ثم يعطى الإذن لأحد الشباب الجالس على اليمين بالكلام فيقوم الشاب وهو شاب قصير القامة ممتلئ الجسم، في رأسه بدايات صلع، يرتدي تيشيرت لبني سادة وبنطال جينز أسود، يقوم ثم يقول في نبرة متحاذقة: لكي نعلم بدقة ما هو النظام الأفضل، تعالوا نقارن الدول الشيوعية بالدول الرأسمالية. الدول الرأسمالية يتمتع سكانها بالحرية، كما يختار قادتها بوسائل ديموقراطية، والديموقراطية هي حكم الشعب للشعب، كما تعتبر الدول الرأسمالية هي رمز

التحضر والحداثة. فمن لا يريد أن يعيش في فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا!

أما الدول الشيوعية فهي دول يعيش سكانها في قهر وخوف وفقر وتخلف في أغلب المجالات. فقد جعلت الشيوعية الإنسان يفقد إنسانيته، فالشيوعية هي نظام لا يمكن أبدًا أن يحدث توافق مع الكيان الإنساني. لذلك رأينا أن الشيوعية رغم الحكم الغاشم والاستبداد سرعان ما انهارت وضعفت، وبدأت تختفي تدريجيًا. ورغم أن الشيوعين لا زالوا متمسكين بآراء فلاسفتهم كأنها كتب مقدسة، إلا أن كل توقعات ماركس وإنجلز وغيرهم من الفلاسفة الشيوعين أظهرت الأيام خطأها وبعدها عن الواقع. فالعالم لم يتحول للشيوعية كما توقعوا، بل رأينا الدول الشيوعية تتساقط واحدة بعد الأخرى، وكان أعظم سقوط للشيوعية هو سقوط الاتحاد السوفيتي في أول عام في التسعينيات. أما الرأسمالية فقد وجدت منذ زمن سحيق ولا زالت محتفظة بقوتها ووجودها إلى الآن، والناس في الدول الرأسمالية الآن كما أوضحت منذ قليل يعيشون في رخاء مقارنة بالناس في الدول الشيوعية الذين يعانون .

وهذا في رأيي لسببين، السبب الأول هو أن الشيوعية هي أيدلوجية غير إنسانية، لذلك إن أقنعت الناس بها لفترة باستخدام الدعاية السوداء والقوة الغاشمة وسياسة الخوف،

فإن الناس سرعان ما يرفضون تلك الفكرة الشيطانية ويشعرون بقبحها لأنها تتعارض مع كيانهم الإنساني. فالإنسان بطبيعته فُطر على الاحتياج إلى التدين، وهو يرى في الأخلاق الحسنة خيرًا، كما أنه يقدس الأسرة، والشيوعية تحارب كل تلك المعاني المرتبطة بإحكام.. بالنفس الإنسانية.

السبب الثاني هو أن الشيوعية لطالما كانت أيدلوجية وعقيدة، وتلك كانت نقطة قوتها في البداية لكن سرعان ما تحولت نقطة القوة هذه لنقطة ضعف، ذلك لأن حَمَلَت تلك الأيدلوجية أرادوا نشرها في كل دول العالم، وكلما كانت تقوم ثورة شيوعية في أحد المناطق كانت تقوم الدول الشيوعية الكبرى بمساعدة هذه الثورة ماديًا وعسكريًا لكي تصل إلى السلطة، وطبعًا قد استنفذت تلك المساعدات موارد دول الشيوعية حتى أدت بها للانهيار.

وهذا بغض النظر عن السياسات الداخلية للدول الشيوعية التي أصفها بالغبية، والتي أهدرت كثير من موارد الدول الشيوعية وقتلت الإبداع وحولت الناس لنسخ بلا روح أو عقل سليم .

أما الرأسمالية فمنذ الحرب العالمية الثانية لم تسعى للتوسع في أي مكان لا عسكريًا ولا فكريًا، وإنما سعت للاستثمار

بدون التدخل في عقائد الناس وأفكارهم، وتركت للدول حرية الحكم الذاتي بل ساعدتهم عليه.

وربما يظن البعض أن مساعدة الدول الشيوعية الكبرى أمثال الاتحاد السوفيتي والصين للثورات الشيوعية كان بغرض حماية الناس والوقوف أمام الاستبداد. لكن في الحقيقة لم يكن هذا إلا بغرض التوسع على الأرض، ولطالما كانت الثورات الشيوعية جالبة للدمار وللموت في أي مكان تطوله. ففي كمبوديا مثلًا وهي دولة صغيرة كانت هادئة ويعيش أهلها في سلام قبل أن تصلها الشيوعية.. لكن لحظ أهلها العسر انتقل إليها وباء الشيوعية من الدول الكبرى المجاورة لها، فكانت النتيجة أن حدثت في كمبوديا أحد أسوء المجازر في تاريخ البشرية، فبعد سيطرة المجموعة الشيوعية التي سمت نفسها الثوار الحمر على الحكم، بدأوا بقتل كل معارضيهم، وقاموا بإعدام كافة المثقفين، حتى كان ارتداء نظارة هو جريمة تستوجب القتل .

ثم أن هؤلاء الثوار الحمر رفعوا شعار ماو الذي يقول إن "طريق الشيوعية يبدأ من القرى" فأجبروا سكان المدينة على ترك المدينة والذهاب للعمل في الحقول وذلك بغرض إنشاء ما سموه "المدينة الزراعية الفاضلة"، لكن هذه المدينة لم تنشأ أبدًا وإنما نشأ ما سمي بحقول الموت. فقد كان الناس يعملون في تلك الحقول في أفظع الظروف تحت تهديد

السلاح، فمات الكثيرين جراء تلك الظروف القاسية، ومن كان يظهر أي علامات امتعاض كان يعذب ثم يقتل حتى قارب عدد الذين قضوا نحبهم في تلك الفترة الثلاثة ملاين في دولة تعداد سكانها تسعة ملاين. وقد أقام هؤلاء الثوار الحمر سجونا كثيرة كان من يدخلها لا يخرج منها حيًا أبدًا.

ووصلت بهم الدموية إلى أنهم كانوا يصورون ضحاياهم قبل موتهم، وكانوا يجمعون جماجم الموتى فيما يشبه المتاحف. وما زالت إلى الآن توجد في كمبوديا ما يسمى بمتاحف الموت، ومتاحف التعذيب، كذكرى على تلك الفترة التي انحدرت فيها الإنسانية إلى أحط المستويات .

وكان أيضًا احتلال روسيا لأفغانستان أحد صور التوسع للشيوعية والتي ارتكبت جرائم بشعة في حق الأبرياء فقتلت الآلاف وعذبت وسجنت الآلاف، ثم دُحر ذلك التوسع الشيطاني بدباباته وطائراته وأسلحته المتطورة، على أيدي المقاومة الإسلامية في أفغانستان بأسلحة بدائية، وذلك يدل على مدى هشاشة العقيدة الشيوعية النفعية وضعفها .

ولقد فشلت الشيوعية في كل المجالات ولم تنجح إلا في اختيار لون علمها، فقد اختاروا لعلمهم لون الدم، وهو اللون الذي يكسوا أي أرض تصلها الشيوعية المادية .

سكت الشاب الجالس على اليمين بعد أن شكر الحضور على الاستماع والمسؤولين على إتاحة الفرصة له للكلام، شكره الجد على كلامه المثمر وعلى ثقافته الواسعة، ثم أعطى أحد الشباب الجالس على اليسار الفرصة للكلام، وقف الشاب وكان مفتول العضلات ضخم البنية يرتدي تيشرت أسود ضيق وبنطلون جينز أزرق، وقف ثم قال في نبرة واثقة يتخللها بعض التهكم في بعض الأحيان: من أكثر الشعارات المضحكة في الوقت الحاضر هي أن الديموقراطية هي حكم الشعب للشعب، وأن من يحكمون بالنظام الديموقراطي هم أحرار ولديهم الحق في تقرير مصيرهم. أتفق مع زميلي الذي تكلم منذ قليل أن الرأسمالية كانت أكثر مكرًا من الشيوعية، فقد ابتكروا أنظمة يتحكمون بها في الناس من دون أن يشعر الناس أنه يتم خداعهم والتحكم بهم. المثال الأشهر لهذا هو ما يسمى بالديموقراطية، فالناس يظنون أنهم هم من يختارون من يحكمهم في حين أنه لا يمكنهم إلا اختيار واحد من الخيارات المتاحة. بلفظ آخر، أن المؤسسات الحاكمة الفعلية للبلاد وهي المؤسسات الاقتصادية الكبرى، تختار بعض المرشحين الذين يتوافقون مع مصالحها ثم بعد ذلك يُسمح للشعب أن يختار واحد من هؤلاء الأشخاص الخادمون لمصالح هذه المؤسسات. ومن يدرس النظام الانتخابي في أمريكا بشيء من العقل يعلم ذلك بسهولة جدًا، فإنه لم ينجح في تاريخ أمريكا أي رئيس

مستقل بعد جورج واشنطن وهو الرئيس الأول لأمريكا، وبقية الرؤساء هم في الغالب إما يتبعون للحزب الديموقراطي أو الحزب الجمهوري .

وبالطبع لن يرشح أي من هذين الحزبين أي مرشح مخالف للسياسات العامة والتي يضعها مالكوا الأموال في أمريكا، أو الرأسماليين الكبار. ولا يمكن لأي مرشح مستقل أن ينجح، ذلك لأنه يحتاج لمبالغ كبيرة جدًا لكي ينفق على حملته الانتخابية وهذا غير متاح، كما أن الإعلام لن يعطي له أي أهمية ذلك أن الإعلام هو مملوك للمؤسسات الاقتصادية الكبرى، والناس يحركهم الإعلام كعرائس الماريونيت، فيجعلهم يختارون المرشح الذي يخدم مصالح تلك المؤسسات ويقنع الناس أنهم اختاروا هذا المرشح بمحض إراداتهم، وهذا التوجيه بالطبع لا يحدث فقط في الانتخابات وإنما في الآراء السياسية وفي الاستفتاءات على القوانين وفي شن الحروب، وغيرها من الأشياء.. وبالتالي فالديموقراطية ما هي إلا خدعة ماكرة.

أما عن دعم الدول الرأسمالية للديموقراطية وللحكم الذاتي للبلاد فهذه مزحة رائعة في الواقع، بصراحة قد أضحكتني كثيرًا، لذا قبل أن أتحدث عنها أود أن أشكر زميلي الجالس على اليمين على تلك المزحة الرائعة... يخبط الشاب الجالس على اليسار يده ببعضها أربع مرات مفتعلًا التصفيق في

حركة استعراضية وهو ينظر للشاب الجالس على اليمين والذي كان يتحدث قبله، ثم يكف عن التصفيق ويتابع قائلًا: إن الدول الرأسمالية تلك لا تدعم سوى الأنظمة التي تقدم لها فروض الطاعة، وتضمن لها رعاية مصالحها، أما إن انحازت تلك الحكومات تجاه شعوبها فإن مصيرها يكون انقلابا عسكرياً أو تصفية كاملة، تأتي بحكومة مرضيٌ عنها من قبل الدول الرأسمالية الحاكمة للعالم، فتدعمها تلك الدول الرأسمالية التي تدعي دعمها للديموقراطية وللحرية، تدعم تلك الأنظمة مهما كبَّلت الحريات وسفكت الدماء ومهما كانت شمولية ومستبدة. والأمثلة على ذلك تحتاج إلى محاضرات عدة لذكرها، لكني سأمر على بعضها بسرعة .

في سنة 1951 انتخب محمد مصدق حاكمًا لإيران، وكانت أمريكا تتحكم في البترول الإيراني وتنهب أغلبه. فأراد مصدق أن يوقف ذلك، فحذرته الحكومة الأمريكية، فأصر على موقفه وقرر تأميم النفط، فكان مصيره أن دبرت الاستخبارات الأمريكية مؤامرة للانقلاب عليه، ثم جاءوا مكانه بحاكم مستبد طاغية لكنه تابع لأمريكا، هذا الحاكم هو الشاه. وقد لاقت إيران على يد الشاه تدهورًا في كل المجالات، رغم ذلك اعتبرته أمريكا صديقًا لها، لأنه تركها تسرق شعبه. أنظروا كيف تدافع أمريكا عن الديموقراطية! [18]

فعلت أمريكا هذا نفسه في تشيلي عندما دبرت مخابراتها انقلابًا على الرئيس المنتخب أليندي، لأنه تبنى سياسة اشتراكية وكانت ضد مصالح الشركات الأمريكية في تشيلي. فدعمت أمريكا انقلابًا عسكريًا هناك بقيادة الجنرال بينوشيه، وقد قُتل أليندي في هذا الانقلاب. وما إن تولى بينوشيه الحكم حتى طبق السياسة الأمريكية الرأسمالية، وتسبب ذلك في إفقار كامل للشعب، كما حكم الجنرال بينوشيه شعبه بفظاعة شديدة فقتل الآلاف وسجن الآلاف، حتى أن الناس كانت تُختطف في وضح النهار، ثم يختفون ولا يُعلم عنهم شيء، وذلك بدون أي تهمة. والمخابرات الأمريكية دبرت انقلابات في عدة دول أخرى لا يتسع الوقت لذكرها. [6]

ومن الأحداث التي فضحت أمريكا ما حدث في بنما من اغتيال الرئيس عمر تورخيوس لرفضه تحكم أمريكا في قناة بنما، وبعد وفاة تورخيوس رفض خلفه الرئيس نورييغا هو الآخر التدخل الأمريكي في بنما، فشنت أمريكا حملة عسكرية على بنما قتلت فيها الآلاف وهدمت عدت أحياء يسكنها المدنين بطائراتها العسكرية، ثم اعتقلت الرئيس نورييغا من بلده وحاكمته في أمريكا وحكمت عليه بالسجن ثم أودعته في سجون أمريكية. أنظروا كيف أن الحكومات الرأسمالية لا تتدخل في شؤون الدول الأخرى! يبتسم الرجل

ابتسامة تهكم، ويضحك الجالسون على اليسار ضحكة رضا بكلامه، بينما يصمت الجالسون على اليمين في تأفف .

يتابع الشاب قائلًا: العالم كله يشهد أن الدول الرأسمالية بقيادة أمريكا ما وضعت منخارها قط في دولة ما إلا ودُمِّرتْ هذه الدولة وأصابها الخراب والهلاك والركود والتخلف في كافة المجالات، وذلك رغم أنهم طوال الوقت يرفعون شعار الدفاع عن الحرية والحرب ضد الاستبداد. وصدقت المقولة: "أن الدولة الوحيدة التي لا يمكن أن يحدث فيها انقلاب هي أمريكا لأنها ليس بها سفارة أمريكية". لا أعلم كيف يحمل سياسيهم هذه الجرأة وهذه الوقاحة ليدَّعوا أنهم يدافعون عن الحرية.. ويصفون كل من يقف ضدهم بتهم واهية كالإرهاب أو الراديكالية أو تجارة المخدرات، أو أي تهمة يبررون بها أفعالهم الإجرامية.

يسكت الشاب ثم يجلس فيشكره الجد ثم يشير لأحد الشباب الجالس على اليمين، والذي رفع يديه طالباً الكلام، بأن يتكلم، فيقوم الشاب، وهو شاب متوسط القامة أبيض البشرة، شعره قصير، ممتلئ الجسم قليلًا، وتبدو عليه علامات الرفاهة، يرتدي قميصًا سماويًا وبنطال قماش رصاصي، فيقوم ثم يقول: أردت أن أضيف نقطة أخرى لتأثيرات الشيوعية السلبية، فإنها بسبب سيطرة الدولة على كافة الأموال وقمع الأفكار المخالفة، تقتل الإبداع، وذلك لا يحدث

في الدول الرأسمالية، لأن الرأسمالية مبنية على التنافس وحرية الإبداع. لذلك نجد ترديًا ملحوظًا في كل الاعمال الإبداعية في الدول الشيوعية، فنجد أن في روسيا مثلا وقد كانت من أكثر البلاد غنى بالمبدعين والفنانين في كل المجالات، قد تحولت الفنون هناك بعد الثورة الشيوعية إلى حالة شديدة من الرداءة والقبح، وصارت لا تهدف إلا للترويج للحكومة وللأفكار الشيوعية الدموية .

وقد قمع أو قتل كافة الفنانين والمبدعين الأحرار. وهذا طبعا دليل قاطع على مدى الانحطاط الذي تسببه الأنظمة الشيوعية في بلدانها. بكلمات أخرى، في ظل نظام القيصر الرأسمالي كان الإبداع والفن في غاية الغنى والجمال، لكن بعد الإطاحة به والتحول للنظام الشيوعي بسط القبح والرداءة جناحهما على كافة الأشياء، وقُتل كافة أنواع الإبداع. كان هذا الشاب يتكلم بصوت هادئ جدًا وكلماته تخرج من فمه كلمة كلمة بشكل متقطع، أنهى كلامه ثم جلس مباشرة بدون أن يعطي أي إشارة بأنه قد أنهى كلامه .

لما رأى الجد هذا شكره على كلامه، وأعطى إشارة لأحد الشباب الجالس على اليسار، والذي كان قد رفع يده عدة مرات قبل ذلك لكن لم يسمح له بالكلام، أن يتكلم، فقام الشاب وهو متوسط القامة أسمر البشرة شعره طويلة مجعد مربوط من الخلف برباط شعر، قام ثم قال في نبرة حماسية

يتخللها بعض التهكم: بالفعل الرأسمالية تتيح للناس فرصة الأبداع، ولكنها بعد ذلك تمتص ثمرة إبداعهم وتعبهم. فالأشخاص الموهوبون المبدعون يعملون لدى الشركات الكبرى ليل نهار ثم يحصلون على مرتب يضعهم في مستوى مالي متوسط، أما من يحصل على كل المال فهم أصحاب الشركات الذين لا يقومون بأي شيء. وحتى هذه الأموال القليلة التي يتلقاها هؤلاء المبدعون فإنه يعاد امتصاصها منهم وإعادتها لأصحاب الشركات عن طريق الدعاية المستمرة للمنتجات الجديدة، والتي جعلت الناس في نهم دائم للشراء، وكلما حصلوا على شيء أرادوا شراء شيء آخر .

فشعار القرن الواحد والعشرين تحت حكم الرأسمالية هو " أصنع رغبة ثم بعها"، فكم من الناس ينفق كل ما يملك ليشتري تليفونًا جديدًا لن يستخدم أغلب إمكانيته، وكم من الأموال تنفق على الشوكولاه والبيبسي والشيبسي، وكنتاكي وماكدونالدز وهارديز، على المأكولات والمشروبات التي تصورها الإعلانات كأنها المصدر الوحيد للسعادة، فيصاب الناس بالسمنة بسبب هذه المأكولات، ثم يرون إعلانات أخرى عن منتجات لتخسيس أوزانهم، فيلهثوا وراءها ويدفعوا كل ما يملكون لتخسيس وزنهم، رغم أنهم في البداية لو أكلوا ما يحتاجون فقط ما وصلوا لهذا الوزن .

فالرغبة دائمًا ما تخلق رغبة أخرى، ويظل الناس في دائرة لا تنفك من الرغبات لا يوقفهم عن الدوران الرتيّب إلا الموت، يعملون ليل نهار ثم يدفعون كل ما يحصلون عليه من أموال لتحقيق بعض الرغبات التافهة، وذلك رغم أن تلك الأموال أصلًا هي أقل كثيرًا من حقوقهم .

وتستخدم الشركات الكبرى وسائل شتى لشغل الناس عن حقوقهم، ولدفعهم إلى إدمان الشراء وتجربة الأشياء الجديدة المزيفة، وتنفق الشركات أموال طائلة على هذا. وتدفع أموال طائلة لمجموعة من التافهين من المغنيين أو الرياضيين، لكي يروجوا لتلك المنتجات وذلك النمط الأحمق من الحياة. فتخرج من تسمى بالفنانة مرتدية بعض الملابس العارية وواضعة أطنانًا من المكياج على وجهها حتى تبدوا جميلة، ثم تُظهر أنها تستخدم المنتج الفلاني حتى تصبح بهذا الجمال. ويخرج لاعب الكرة قليل الثقافة ضئيل التعليم ليروج هو الآخر لأحد المنتجات .

تخلق تلك الشركات الرأسمالية مجموعة من النجوم المزيفين وذلك بهدف السيطرة على عقول الناس بمساعدة الأعلام وخلق مجموعة من القدوات المنحطة، والتي يتبعها الناس منخدعين بشكلها المنمق المزيف. وهذه القدوات التافهة تتقاضى أجورًا خيالية لا يحلم بها هؤلاء الذين يعملون بحق ليل نهار، ويفيدون المجتمع بحق .

يسكت الشاب قليلًا يفكر ثم يتابع: الموهوبون المبدعون تحت النظام الرأسمالي يحصلون على أموال تجعلهم في مستوى متوسط. أما الضعفاء وقليلي الموهبة، فتحت النظام الرأسمالي ليس لهم إلا الموت جوعًا. ففي النظام الرأسمالي لا يمكنك أن تتقاضى جنيهًا ما لم تكسب الشركة من وراءك ألف جنيه. وهؤلاء الضعفاء أو قليلي الموهبة أو قليلي التعليم، ليس لهم إلا العمل في أعمال قذرة مهلكة وتحت ظروف في غاية القسوة، ثم إنهم يتقاضون أجورًا لا تكفي حتى لسد حاجاتهم الأساسية من مأكل وملبس .

يعمل الآلاف من النساء والأطفال والرجال ليل نهار في الحقول والمصانع والمناجم، في ظروف في غاية القسوة حتى أن هناك أعداد مهولة تموت اثناء العمل، ثم لا يحصلون حتى على ما يسد رمقهم .

تحت الحكم الرأسمالي صارت ظروف الملايين من الناس أسوء من ظروف العبيد من الماضي. فالعبيد كان يتكفل سيدهم بإطعامهم وبملابسهم، أما تحت النظام الرأسمالي فهناك الملايين من البشر يعملون ليل نهار ثم لا يحصلون حتى على ما يكفيهم من الطعام، رغم أنهم اسماً يعتبروا أحراراً .

وهؤلاء المساكين ليس في مقدورهم حتى الاعتراض أو الثورة فقد امتصت طاقتهم وصحتهم الشركات الرأسمالية. إن الرأسمالية، يا أصدقاء، قد صنعت نظامًا جديدًا للاستعباد، نظامًا أشد فظاعة من أي نظام كان في الماضي .

وهناك نوع آخر من الاستعباد ترعاه الرأسمالية وهي تجارة الجنس، وفيه تبيع النساء أجسادهم مقابل المال، ولقد قننت كافة الدول الرأسمالية تلك النخاسة بغرض الحصول على المال، وتلك الصناعة في الواقع أقصد صناعة الدعارة هي من أكثر الصناعات درًا للأموال .

يرسم الشاب على وجهه ابتسامة متهكمة، يفكر قليلًا ثم يتابع: وقد تكلم أحد زملائي الجالسين على اليسار منذ قليل، عن امتصاص الرأسمالية لدماء الشعوب الأخرى، وأنا سأثبت لكم أن الدول الرأسمالية تمتص حتى دماء شعوبها، بالإضافة لدماء الشعوب الأخرى، لتتكدس الأموال في خزائن قلة قليلة من الناس .

ولا أعلم لما لم يتكلم أحد من زملائي عن نظام البنوك الرأسمالي، فهو أهم ملامح الرأسمالية. فإن الدول الرأسمالية تُجبر حكومات الدول الأخرى على أخذ قروض مهولة من البنوك وذلك بحجة أن تلك الأموال ستستخدم لعمل مشاريع تنمية في تلك الدول، وتقنعها أيضًا أن تُسند

تلك المشروعات لشركات تابعة لهذه البنوك. فتدفع البنوك هذه الأموال بيدها اليمنى، ثم تأخذها الشركات التابعة للبنوك باليد اليسرى.

ثم تكون تلك القروض كبيرة بحيث أن الدولة التي تتلقاها لا يكون في مقدورها سداد الدين في الوقت المحدد. فتتراكم الديون على تلك الدول ذلك بالإضافة للفوائد التي تضاف على الديون كل عام. فتظل تلك الدول تدفع أموال طائلة للبنوك سنويًا ورغم ذلك يزداد دينها ولا يقل .

ونظير ألا تطالب تلك البنوك بأموالها كاملة من هذه الدولة المديونة فيجب على تلك الدولة أن تخضع للنظام الرأسمالي العالمي. وبالتالي يتم السيطرة على تلك الدول سياسيًا واقتصاديًا ويتم ابتلاع مواردها من قبل ما يسمى بالشركات متعددة الجنسيات. وتتحول شعوب تلك الدول لحالة شديدة من الفقر، وتقع تحت وطأة الاستبداد وقمع الحريات، حيث أنه لا يمكن أن تقبل أي حكومة شريفة، أن تقبع تحت تلك الضغوط وأن تُسرق ثروات شعبها بهذه الصورة .

وإن وُجِدت حكومة شريفة وأرادت منع هذه السرقة لثروات شعبها، فإنه يحدث لتلك الحكومة ما وضحه زميلي منذ قليل، من انقلابات عسكرية تأتي بحكومات تابعة للنظام العالمي

الرأسمالي أو تصل أحيانًا إلى الاغتيالات المباشرة للحكام الشرفاء.

أما عن الشعوب في الدول الرأسما...

يقاطعه الجد لنفاذ العشر دقائق ويشكره على كلامه.. ثم يتيح للشباب الجالس على اليمين الفرصة في الكلام لكن لا أحد يرفع يده، فيطلب الشاب الذي كان لتوه يتكلم أن يسمح له بإكمال كلامه طالما لم يرفع أحد يده من الجهة الأخرة، فيسمح له الجد بذلك، فيقوم مرة أخرى ثم يقول: بالنسبة للشعوب في الدول الرأسمالية فقد بدأ يظهر عليهم في الآونة الأخيرة أثار الرأسمالية، فهناك الآلاف قد فقدوا منازلهم نتيجة القروض البنكية. فالناس بسبب إصابتهم بنهم الشراء وصلوا لدرجة الاستدانة من البنوك بغرض شراء مستلزمات لا يحتاجونها حتى .

فتتراكم عليهم الديون وتزداد لدرجة أنهم لا يستطيعون سدادها. فيظلون سنين طوال يعملون ليل نهار لسداد تلك الديون، حتى يصل مجموع الأموال التي يدفعها الشخص إلى ضعف الأموال التي اقترضها في الأساس، وذلك بسبب زيادة الفائدة على الدين عندما يتعسر المدين عن الدفع لفترة. ويصل الحال بالكثيرين من هؤلاء المدينين أن تصادر تلك

البنوك كل ممتلكاتهم حتى يلقى هؤلاء في الشارع بلا مأوى، وربما يدخلون السجن .

وقد انتشر الفقر وتردي الأحوال المعيشية في الدول الرأسمالية نفسها في الفترة الأخيرة، وزادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء بشكل مهول. فالرأسمالية نظام متوحش يؤدي لنتيجة واحدة أن تتكدس الأموال في يد قلة قليلة من الناس يتحكمون في كل شيء ويملكون كل شيء، بينما يعمل بقية الناس عندهم كعبيد. فيعاني معظم سكان العالم الأهوال ويتضورون جوعًا، رغم أنه قد تم إفهامهم عن طريق الدعاية الإعلامية أنهم أحرار وأنهم يملكون حق تقرير مصيرهم. لكن الواقع يقول، أن حكم الرأسمالية يؤدي بالناس إلى الاستعباد، ولكنه استعباد خفي ماكر.

وفي رأيي أن نظام الاستعباد الجديد أكثر خطورة من الاستعباد القديم. لأن السادة الجدد الذين يملكون ولا يعملون في النظام الرأسمالي قد أقنعوا العبيد الجدد الذين يعملون ولا يملكون أنهم أحرارًا وليسوا عبيد. وأن الأموال التي يحصل عليها هؤلاء السادة بدون عمل هي حقهم الطبيعي، رغم أنها في الواقع سرقة علنية لكنها سرقة قانونية لمعظم سكان العالم .

يسكت الشاب ويشكر الجد على اتاحة الفرصة له للحديث مرة أخر ثم يجلس، فيشكره الجد على كلامه المثمر، ويسأل إن كان هناك من الحضور من يريد الكلام، وأن هذه الكلمة ستكون الأخيرة لاقتراب الوقت على الانتهاء، فيرفع نضال من الصفوف الخلفية في الوسط يده، فيشير إليه الجد بالكلام.

يقوم نضال ثم يقول: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.. في الواقع أنا منبهر من مدى الثقافة التي يتمتع بها الحضور في الجهتين، خصوصًا أن معظمهم من الشباب، لقد استفدت كثيرًا واستمتعت كثيرًا في هذه الليلة، من هذا النقاش الراقي والمثمر على حدا سواء.. لذا أود أن أشكر القائمين على ذلك المحفل الثقافي الرائع، والذي يتيح هذا التبادل المعلوماتي والثقافي المثمر والجميل .

لكني مستغرب بعض الشيء من أن أرى شبابًا في مثل تلك الثقافة يتبنون أفكارًا كالرأسمالية أو الشيوعية، فلقد لاحظت في النقاش، إن كلا الطرفين يرد على ادعاءات الطرف الآخر في الغالب عن طريق مهاجمته، إلا مرات قليلة حيث يصدر بعض التبريرات الواهنة ثم يهم بعد ذلك بالهجوم بقوة على الطرف الآخر. وهذا إن دل يدل، على أنه ما من طرف يرفض المعلومات والاتهامات التي يطرحها الطرف الآخر عنه. ومن قراءاتي فأنا أعلم أن كلا المعلومات صحيح بالفعل .

لذلك فإني مستغرب لما يتَّبع شباب في مثل ثقافتكم واحدة من تلك الأيديولوجيات التي تعلمون أنها فاسدة، وتعلمون أنها لطالما قامت بجرائم فظيعة. فالرأسمالية والشيوعية كلاهما، واستنادا على كلامكم، قد حققوا دمارًا شديدا للإنسانية ولا زالت الإنسانية تعاني جراء هاتين الفكرتين الماديتين النفعيتين. لما تدافعون عن واحدة من هذه الأيديولوجيات! وقد ولدتم في بلد إسلامي وعلمتم الإسلام، كيف تتركوا الإسلام وتتبنوا واحدة من تلك الأيديولوجيات المدمرة؟! فمن قُتل جراء تلك الأيديولوجيات منذ ظهورها في القرن الماضي يفوق كل من قتل في كل الحروب قبل ذلك .

والإسلام لو درسنا تشريعاته بشكل منطقي نجد أنها تفوق بخطوات واسعة كل ما تفتق عنه عقل البشر.. فقد جمع كل المحاسن في تلك الأفكار وفاقها، ولم ينل من مساوئها وشرورها شيء. فقد جعل الإسلام للفقراء حقًا في أموال الأغنياء وهي الزكاة، وبهذا يضمن للناس احتياجاتهم الأساسية. وساوى بين الناس، فلا يسبق المرء أخاه بغناه أو حسبه وإنما بتقاه وعمله. وبالتالي دعم الابداع والتنافس الشريف بين الجميع بغض النظر عن حالتهم الاجتماعية .

وحرم الربا وهو ما تقوم عليه البنوك الرأسمالية اليوم، وبتحريم الربا منع الأغنياء أن يستغلوا المحتاجين فيستعبدوهم بحاجتهم، فبالربا يزداد الأغنياء غناء بدون

عمل، ويزداد الفقراء فقرًا رغم عملهم الذي لا ينقطع. وحرَّم كل معاملة مبنية على جهالة أو غرر، فحمى الناس من أن يُسطى على أموالهم وحقوقهم .

والإسلام بالإضافة لحمايته لجموع الفقراء والضعفاء من أن يجور عليهم معدومي الضمير من الأغنياء، فقد حمى الأفراد من جور الدولة. فحمى الملكية الشخصية، فلا يجوز للدولة في أي ظرف مصادرة أموال فرد من أفراد الدولة مهما بلغ هذا الفرد من الغنى، ومهما بلغت هذه الأموال وزادت طالما يدفع حق الفقراء، الزكاة، وطالما كسبها من مصدر شريف. وبذلك حمى الإسلام الفقراء والأغنياء ودعم الإبداع والمنافسة الشريفة وضمن تكافئ الفرص، ولم يجور على حق أحد لصالح أحد.

فلما نترك هذا النظام الكامل العادل ونتبع تلك الأنظمة الناقصة الظالمة!

لما تتركون دين الله الذي يحمل في طياته العدل والرحمة والرخاء، لتتبنوا أيديولوجيات نفعية لا يأتي من خلفها إلا الدمار والخراب! ألم تقرئوا التاريخ، وتعلموا أنه بخلاف تلك الأيديولوجيات فلم يدخل الإسلام أي بلد إلا وتحولت بعد بؤس إلا رخاء وبعد ظلم إلا عدل ورحمة، حتى مع غير المسلمين. والدليل على ذلك بلدكم هذه التي تعيشون فيها،

فلما دخل الإسلام مصر وطرد الرومان المسيحين الذين كانوا يضطهدون الأقباط المصريين، حكم الإسلام مصر بالعدل وعامل أهلها حتى من غير المسلمين بلطف، ولم يجبر أحدًا منهم على الإسلام، حتى تحوَّل معظمهم طواعية إلا الإسلام لما رأوا فيه صورة العدل الكامل، والصلاح الذي ليس في عوج .

ومصر ليست استثناء، فهذا ما حدث في العراق وهذا ما حدث في الشام وهذا ما حدث في المغرب وهذا ما حدث في كل بلد دخلها الإسلام. وفي الأندلس بعد أن دخلها الإسلام وصلت إلى الحد الأقصى من الحضارة والرقي والإبداع.. فكانت الأندلس بلا منازع أجمل البلاد وأكثرها رقيًا وتحضرًا وعدلًا ورخاءً في القرون الوسطى.

ففي حين كانت الأندلس تمتلئ بالمكاتب الضخمة وبالعلماء الأفذاذ، كانت أوربا تقبع في جهل مطبق وظلم واستبداد فظيع، تحت حكم الكنيسة. وبمجرد خروج المسلمين من الأندلس وحكم الكنيسة لها، تحولت الأندلس من أرقى مراتب الحضارة إلى أحط دركات التخلف، فظهرت محاكم التفتيش لكل الطوائف التي لا تتبع الكنيسة يهودا ومسلمين وحتى المسيحين الذين كانوا لا يتبعون الكنيسة كانت تلاحقهم محاكم التفتيش هذه فتقتلهم بطرق بشعة، ولا زالت

تُعرض آلات القتل الوحشية تلك في متاحف أوروبا إلى الآن .

كيف تتركون الإسلام الذي يضيء للناس طريق دنياهم ليعيشوا حياة سوية وسعيدة، ويضمن لهم الفوز في آخرتهم، لتتبعوا أيدولوجيات وأفكار شاذة لا تأتي إلا بالشر!
أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير!

أقول لأخوتي وأحسبهم من ذوي العقول الفذة، عودوا إلى دينكم، ففيه صلاح الدنيا والآخرة، عودوا إلى طريق الحق المستقيم ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وأخيرا أُعرب مرة أخرى عن إعجابي بثقافة الحضور وغزارة معرفتهم، وعن فرحتي بأن يكون في مصر أمثال تلك الندوات الثقافية.. وشكرًا لإنصاتكم.

يستأذن شيخ المسجد الجالس بجانب الجد في أن يختم هو الأمسية، فيأذن له الجد بتوقير وترحيب، فيقول الشيخ في بشاشة وصوت هادئ ووقور: بصراحة، نحن سعداء جدا يا باش مهندس أن تكون حاضرًا معنا لمرتين متتابعين، كلامك رائع ونتمنى أن ينصت إليه شبابنا، الذين أحسبهم كما قلت على قدر عالٍ من الثقافة والذكاء... شكرًا للحضور جميعًا ونلقاكم بعد أسبوعين إن كتب الله لنا حياة وشاء لنا اللقاء.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

# عيد زواج نضال وصمود

في يوم الثلاثاء أنهى نضال عمله الرابعة عصرًا، ركب سيارته الحمراء وغادر موقع العمل متوجهًا إلى مركز المدينة، قاطعًا الطريق الزراعي، كان يقود السيارة مبتهجًا، يرى الألوان من حوله وكأن أحدًا قد نزع من على عيونه طبقات من التراب، كانت تجعل الألوان قاتمة، فصارت مبهجة متألقة. سار على الطريق الزراعي بين الحقول، يرى الفلاحين يسوقون مواشيهم عائدين إلى بيوتهم. قاد لمدة ساعة حتى وصل إلى مركز البلدة أو ما يسميه الريفيون البندر. ركن سيارته بالقرب من أحد الأرصفة .

الرصيف عريض مزروع في وسط الرصيف مجموعة من الأشجار والنباتات، نزل من السيارة وتأكد أن أبوابها قد أغلقت بإحكام، ثم ترجل وتوجه إلى آلة الصراف الآلي وسحب منها أموالًا كان قد ادّخرها. بعد أن سحب الأموال وضعها في جيب سترته ومشى متوجهًا إلى محل ذهب اعتاد التعامل معه، كان نضال ينوى شراء قلادة ذهبية ليهديها لصمود في يوم زواجهما .

الشوارع في المركز مزدحمة مقارنة بالريف، الناس يمشون مهرولين وكأنهم جميعًا متأخرون على موعد. الأصوات صاخبة إلى حد ما، والجو مشحون، والهواء ملوث، وكان نضال لهذا السبب لا يفضل حياة البندر، لكن في هذا اليوم تحول هذا الصخب في أذنه إلى موسيقى رومانسية، والازدحام كأنه لوحة جميلة متناسقة الألوان تتراقص فيها الصور برشاقة وتتحرك بانسيابية أمام عينيه. وقد كان يمشي وكأنه لا يرى الناس أو الازدحام حوله على صورتهم المعتادة، فوجدانه مشغول تبرز أمام عينيه صورة صمود وهي تنظر إليه برقة وحياء لامعة العينين محمرة الوجنتين بينما يضع هو القلادة الذهبية على رقبتها، تلك النظرة التي تضفي على الدنيا بريقًا وبهجة لا يمكن بسهولة أن يعكرها شيء .

عبر أحد الشوارع العمومية ثم اتجه إلى شارع جانبي من الشوارع التي تنتشر فيها المحلات التجارية، يعج الشارع بمحلات الملابس ومحلات الأكل السريع، تستطيع أن ترى تلك المحلات حتى قبل أن تدخل الشارع، للشارع رائحة مميزة وكأنها مجموع وخليط من الروائح المنبعثة من أصناف الطعام المختلفة التي تطهوها محلات الطعام المنتشرة في الشارع.  في مدخل الشارع قهوة مزدحمة،

تتراكب الأصوات وتتداخل في تناغم يزيل أي إحساس بالوحشة.

دلف إلى الشارع لكن بمجرد أن دخل لاحظ شيئًا غريبًا، لطالما أتى لهذا الشارع وكان يعج دائمًا بالباعة الجائلين، لكنه لا يرى أيًا منهم.. أكمل طريقه متوجهًا إلى محل المجوهرات في آخر الشارع. كان الشارع أقل ازدحاما من المعتاد، كما يتناثر على جانبيه بعض حطام الزجاج والأخشاب، وتوجد على الأرض بعض المشغولات اليدوية التي تبدو جديدة، ولا يوجد أي باعة جائلين .

كان يقف على جوانب الطريق بعض الشباب يتحدثون بغضب، تبدو على وجوههم علامات الهم، لم يستطع نضال أن يميز كلامهم لكن يبدو أنه تخلله بعض السباب لجهة ما. شعر نضال أن الهواء معبأ بأحاسيس قاتمة وكأن الشارع قد أُمطر بسحابة لا تحمل في طياتها ماء، وإنما خيبة أمل وغضب وهم وكراهية.

لكنه لم يرد أن يفسد هذا اليوم ببعض الأخبار السيئة، فأكمل طريقة إلى وجهته، وقبل أن يصل إلى محل بائع المجوهرات، وجد سيدة في منتصف العمر مرتدية عباءة سوداء قديمة وملتحفة بطرحة سوداء طويلة، جالسة على رصيف على الجانب الآخر من محل الذهب، تضع يدها

على وجهها حانية رأسها يهتز جسدها وكأنها تأن من البكاء الشديد.

لم يستطع نضال أن يتجاهل هذا الأمر، فوقف ينظر إليها قليلًا، ويفكر ماذا يفعل أيدخل إلى محل الذهب يشترى حاجته ثم يولى أم ينظر ما شأن تلك المرأة، ويحاول مساعدتها. وقف لبرهة في حيرة من أمره، لكنه سرعان ما قرر أن يقترب من السيدة ويسألها عن سبب بكاءها .

اقترب برفق وجلس بجانب المرأة قائلا لها بصوت عطوف: ما الذي يبكيك يا أختاه؟ ماذا حدث؟ رفعت المرأة وجهها من على يديها، فوجد نضال أن وجه المرأة قد تحول إلى الأحمر القاني، مبلل بكمية كبيرة من الدموع. تنهدت المرأة بحسرة ثم حاولت استجماع نفسها لعلها تستطيع الكلام، ثم نطقت بصوت مهزوز مهزوم باكي بكلمات تخرج متقطعة يفصل بين كل كلمة وكلمة شهقة مفاجئة لا إرادية من طول البكاء، فقالت: لقد أخذوا كل شيء، أخذوا كل شيء، لا أعلم كيف أعود لأولادي الآن وأنا ليس معي شيء يسد رمقهم، لقد سئمت تلك الحياة سئمت هذا الظلم، إنهم لا يريدون أن يتركونا حتى نعمل لنطعم أبناءنا الجوعى. ماذا فعلت ليأخذوا البضاعة، لقد تعبت.. لقد تعبت. انهمر الدمع من عينيها مرة أخرى وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.. كررت.. حسبي الله ونعم الوكيل .

قال نضال وقد غطى وجهه ستائر من الحزن: من هؤلاء الذين أخذوا بضاعتك، ولماذا فعلوا ذلك؟

مسحت السيدة دمعها بكم العباءة ثم ردت بنفس الصوت المكلوم قائلة: البلدية والشرطة، قالوا إننا نشغل الطريق، ونعيق المارة. سكتت لبرهة ثم انفجرت قائلة: وماذا يريدون منا أن نفعل، هل يظنون أننا سعداء بوقفتنا هذه في الشوارع، أخذوا كل شيء منا لأننا فقراء، لأنه ليس لدينا ظهر. أما هؤلاء الذين يسرقون الملاين لا أحد يلمسهم، بل ينحنون لهم إذا مروا وينادونهم يا باشا ويا هانم، أما نحن فلا ثمن لنا. إن كانت تتعبهم وقفتنا في الشوارع وتضايقهم فليوفروا لنا أماكن نتكسب منها قوتنا.. سكتت لبرهة وكأنها تتذكر إهانة حدثت لها، ثم تابعت بحسرة: لكنهم أخذوا كل البضاعة، ولقد ذهبت إلى الضابط وانحنيت على يده أقبلها لعل قلبه يرق ويعيد ليا البضاعة، لكنه لم يعبأ بي وكاد أن يقبض علي .

ترقرقت عين نضال بالدمع، وتحررت دمعة من عينه اليمنى ثم تحركت راسمة مسارًا بطول وجهه حتى أوقفها شعر لحيته، قال للمرأة: أليس لك مصدر رزق آخر غير هذا؟

ابتسمت ابتسامة محسورة متهكمه وهي تنظر إلى الأرض ثم قالت: لقد مات زوجي منذ ثلاث سنوات، كان يعمل بنَّاءً،

وبينما كان يعمل في أحد الأبنية واقفًا على سقالة في الدور الرابع، انقطع حبل السقالة فسقط من الدور الرابع ومات على فورة. كانت تتكلم وكأنها في عالم آخر، عينها تنظر إلى الأرض لكنها تبدوا وكأنها لا تراها، كانت قد توقفت عن البكاء، وهدأت قليلًا، تابعت: وبالطبع كان زوجي يعمل باليومية وليس له تأمين اجتماعي فلم نحصل على معاش، كما أنه ليس لنا أقارب نعتمد عليهم، كلهم فقراء أيضًا. وقد مات زوجي وترك معي بنتان وابن، كان وقتها الابن لا يزال رضيعًا أما البنتان فواحدة الآن في الإعدادية وأخرى في السنة الخامسة الابتدائية .

لم أعرف ماذا أفعل وقتها، كيف أنفق على أولادي بعدما نفذ كل ما معي من مال، بعت ما كان معي من صيغة، وساعدني بعض أهل الخير، واشتريت هذه البضاعة.. بعض الملابس وبعض الأكسسوارات التي تحبها الفتيات في الجامعة المجاورة، وظللت طوال الثلاث سنوات الماضية آتي كل يوم إلى هذا المكان، آتي أجهز الفرشة قبل أن يستيقظ الناس، وأعود قرب منتصف الليل، لم أتخلف ولو يوم، حتى عندما أمرض لا أتخلف ولا آخذ أجازه، فما أجنيه يكفيني وأولادي يومًا بيوم، وإن توقفت عن العمل ليوم واحد لن أجد ما أطعمه أولادي، والأسعار ترتفع يومًا بعد يوم والمعيشة تزداد صعوبة، انفجرت بالبكاء مرة أخرى

وتابعت وهي تبكي: ولم يكفهم كل هذا أخذوا البضاعة كل ما أملك، وليس معي ما أشتري به عشاءً لأولادي، لقد فكرت في الانتحار لكني خفت من عذاب الله.. قلي يا أستاذ ماذا تفعل أرملة مثلي في هذه الظروف، لمن ألجأ ليس لي أحد ألجأ إليه إلا الله.. هو أعلم بحالي وأرحم منهم؟

كانت الدموع تنهمر من عين نضال اليمنى دمعة دمعة وهو يستمع لكلام المرأة، يمتلأ قلبه بالأسى والغضب من هؤلاء الظالمين الذين لا يأبهون للفقراء وأوجاعهم، يسكنون القصور ويستكثرون على الفقراء حتى قوت يومهم، يستكثرون عليهم ما يسد رمقهم.. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يضع يده في جيب سترته ويخرج منه المال الذي كان ينوى أن يشترى به هدية لصمود ونادى للسيدة بصوت عطوف: كفى بالله ملجأ ووكيل يا أختي، تفضلي هذا المال، أشتري عشاء لأولادك وأشتري بضاعة غير التي صودرت، وسيعوض الله عليك من فضله، فلا تيأسي أبدًا، فالله لا يرد سائلًا، إن فقد الناس الرحمة فالله هو الرحمن الرحيم .

رفعت السيدة رأسها ونظرت في عين نضال لأول مرة، فرأت الدموع في عينه، فقالت: وما ذنبك أنت تدفع ليا كل هذا من جيبك! أنا لم أقصد من كلامي أن أشعرك بالأسى أو أن اجعلك تعطيني مال، فقط كنت أفضفض معك، لعل هذا يخفف عني بعض الهم، أرجعت رأسها ناظرة إلى الأرض

ثم تابعت بصوت محزون منكسر وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا، أمسك عليك مالك يا أستاذ ولا تثقل على نفسك، الله سيرزقني إن شاء الله .

ابتسم نضال ثم قال: ها هو الله يرزقك من فضله، وهل تظني أن هذا المال مني، هذا المال من عند الله، وقد أتى بي إلى هنا اليوم مستجيبًا دعائك ليعطيكِ هذا المال، وما أنا إلا مجرد سبب، والمال مال الله.. هيا تفضلي.

رفعت السيدة رأسها مرة أخرى ناظرة إلى عين نضال ومدت يدها ببطيء وأخذت منه المال، وقالت وقد توقفت عن البكاء، قالت بنبرة سعيدة ممتنّة: ربنا يحميك ويرزقك من وسع وما يحوجك أبدًا يا رب.

رد: وإياكِ... أستأذن الآن.. السلام عليكم.

ردت المرأة بنفس النبرة: وعليكم السلام يا أستاذ ربنا يُنير لك طريقك.

أومئ برأسه ثم التف مواجها محل الذهب، نظر إليه لبرهة، وقد علم أنه الآن لا يستطيع شراء شيء، فمضى عائدًا إلى سيارته، كان حزينًا جدًا لما سمعه من المرأة فهو يعلم أن هناك الآلاف بمثل حالها، وأنه ليس في مقدوره مساعدتهم جميعًا، لكنه على الأقل قد أراح ضميره وفعل ما يستطيع فعله، هذا يخفف الألم عنه قليلًا.

لكن.. ماذا عن صمود، والهدية التي كان يريد أن يهديها إليها، إن عاد لها هكذا ربما تظن أنه قد نسيها، ونسي عيد زواجهما. عاد نضال بغير الوجه الذي قد أتى به، عاد بوجه حزين، فقد تجمعت عليه الهموم، هم ما سمعه من المرأة وهم الهدية التي لم يصبح في مقدوره شراءها .

مضى نضال مسرعًا في الشارع، ورغم ازدحام الشارع شعر بوحشة شديدة، شعر أنه لا أحد غيره هناك، أما عن الضوضاء والأصوات المتداخلة فقد تلاشت وتحولت في أذنه إلى صمت قاتم قاتل، وصل إلى الطريق العمومي ثم عبر إلى الجهة الأخرى حتى وصل إلى سيارته الحمراء.

ركب السيارة ووضع المفتاح بإحدى يديه بينما أمسك عجلة القيادة باليد الأخرى ثم شغل المحرك، وبينما هو على وشك التحرك عادت له خاطرة أنه عائد إلى البيت بدون هدية، فأوقف المحرك مرة أخرى وأرخى يديه إلى جانبه وتنهد تنهيدة طويلة مليئة بالمرارة، حرك رأسه يمينًا ثم يسارًا، لكنه شعر أنه قد لمح شيئًا على الرصيف، فأعاد رأسه ناحية اليمن مرة أخرى .

كانت وردة حمراء جميلة موجودة في وسط النباتات على الرصيف، كانت وحيدة ولا يوجد على مد البصر أي وردة تشبهها. كانت أغصانها نضرة وكأنها قد تفتحت لتوها. لم

يكن نضال قد لاحظها وهو يركن السيارة، لكنه بمجرد أن أبصرتها عيناه شعر بالهم ينقشع من نفسه، وشعر بالطمأنينة تنتشر داخله ببطء كما ينتشر الماء على سطح ناعم مستوى. شعر نضال وكأن تلك الوردة قد نبتت من أجله، شعر كأن الله قد أنبتها ليزيل عنه ما أصابه من هم .

فتح الباب ثم التف حول السيارة وذهب إلى الوردة وانحنى، أمسك بها برفق وقربها إلى أنفه ثم شمها، فغزى عطرها كيانه وألقى عليه إحساسًا باهرًا بالسعادة، كانت الوردة أجمل وردة رآها في حياته، وعطرها أجمل عطر وردة شمه في حياته، والأغرب انه لم يكن في غصنها أي شوك، كانت ملساء تمامًا .

قطفها برفق ثم عاد إلى السيارة ووضع الوردة على الكرسي الذي بجانبه وقاد راجعًا إلى البيت، سعيدًا قطع الطريق، فقد وجد هدية يعطيها لصمود .

وصل نضال إلى باب المنزل وفي يده الوردة، أخفاها خلف ظهره، ثم دق الباب بالطريقة التي تعرفها صمود.. انتظر قليلًا بدون أن يفتح وبينما هو على وشك أن يضع المفتاح في القفل، فتح أحدٌ الباب لكنه ظل واقفًا خلفه، دخل نضال وأغلق الباب، وكانت صمود هي من فتحت، لكنها لم تكون مرتدية غطاء الرأس، ويبدو أنها كانت في انتظاره .

كان شعرها الكستنائي مربوط على شكل ذيل الحصان، منسدل على ظهرها، وكانت مرتدية فستانًا لازوردي اللون طويل منسدل إلى الأرض، أكمام الفستان واسعة من الأسفل وتضيق صاعدة في شكل مخروطي. في وسط الفستان حزام تلفه صمود للخلف حول خصرها وتعقده على شكل فراشة تتدلى على ظهرها.

نظر نضال إليها مبتسمًا وقد غمر قلبه سعادة غير مفهومة الكنه، وبادلته هي الأخرى النظرة والبسمة، ثم اقتربت منه برفق ولفت يدها حول رقبته واحتضنته كعادتها. وبينما هي تحتضنه مغمضة العينين قال لها: كل سنة وأنت طيبة، كل سنة وأنت معي .

رفعت رأسها المرخاة على كتفه الأيسر، أرجعت رأسها للخلف وهي مستندة بكامل جسدها على جسده ثم ردت وقد غمرت وجهها ابتسامة دافئة: لقد تذكرت يوم زواجنا يا حبيبي، كنت متأكدة أنك لن تنسى !

أخرج نضال الوردة التي كان يمسكها بيده اليسرى خلف ظهره، ولامس بأطرافها أنف صمود يداعبه.. فقربت صمود أنفها لتشتم الوردة، فانتشر عطر الوردة داخلها وكأنه غمرها بالكامل حتى لمس روحها، أغمضت عينيها وأخذت نفسًا أعمق لتأخذ جرعة أكبر من العطر، فشعرت وكأنها

ترقص في جنة من الزهور. فتحت صمود عينيها ونظرت إلى نضال نظرة تختلط فيها الدهشة بالسعادة وقالت: من أين جئت بهذه الوردة يا حبيبي، إنها أجمل وردة أشمها في حياتي!

رد وقد بدت على وجه علامات حزن: كنت أود أن أهديكِ شيئًا أكثر قيمة، لكن حدث موقف منعني من هذا؟

حنت صمود رأسها لليمين وفكت يدها الملفوفة حول رقبة نضال ورجعت إلى الوراء قليلًا ثم ردت بقلق: هل حدث لك شيء.. وما الذي أخرك هكذا، طمني؟

رد: لا لا لم يحدث شيء، لكن.... حكى نضال لها قصة مقابلته بالمرأة التي صودرت بضاعتها وكلامها الذي فطر قلبه، وقال لصمود أنه أعطى هذه السيدة المال الذي كان ينوى أن يشترى به قلادة ذهبية يهديها لها، وبعد أن أنهى لها الحكاية تابع قائلًا: سامحيني كنت أريد أن أشتري لك قلادة، لكني لم أستطع أن أرى امرأة في هذا الكرب وأتركها .

ردت صمود: امممم، لا، لا أظن نفسي أستطيع مسامحتك. أرجع نضال رأسه للخلف ونظر نظرة استغراب، سكتت صمود لبرهة ثم تابعت: كيف تظن أنني من هؤلاء الذين يهتمون بقيمة الأشياء المادية! كيف تظن هذا وأنا حبيبتك! هل تظن أني امرأة سيئة، كيف.. هل بدر مني شيء جعلك

تظن بي هذا الظن؟ رد نضال: لا لكن... قاطعته صمود قائلة برقة وهي تنظر إليه بحنان وقد عاودت الابتسام ولفت يدها مرة أخرى على رقبته واستندت بكامل جسدها على جسده: كل ما يهمني أنك تذكرتني يا حبيبي، لو أتيتني بقصاصة ورق مكتوب عليها "أحبك" لكانت بالنسبة إلى أغلى هدية، هي غالية لأنها منك، كنت سآخذها واحتفظ بها بالقرب من قلبي إلى أن ألقاك بها في الجنة، لتتزوجني هناك مرة أخرى. ألست ترغب في أن تكون زوجي في الجنة؟

رد: بلا، هو حلم يراودني كل يوم، أن أظل معكي طوال الحياة وبعد الممات في الجنة، فأنت جنتي في الدنيا، وزوجتي في الجنة إن شاء الله .

ذمّت صمود شفتيها باستحياء بينما تنظر إليه مبتسمة، ثم وضعت أطراف أنامل يدها اليمنى على وجهه وظلت تحركها برقة على وجهه كأنها تتحسس ملامحه، وقالت في تهدج ورقة: ثم إن الوردة جميلة جدًا، أظنها أحلى حتى من القلادة، لم أرى مثلها من قبل، لقد شعرت بسعادة غامرة لمما شممتها. سكتت قليلا ثم تابعت: أتعرف؟ رد: أعرف ماذا؟

كانا لا يزالان واقفان في نفس الوضع وكأن الزمان قد توقف حولهما، قالت وهي ناظرة إلى عينه: لو لم تكن

أعطيت هذه المرأة المال، وأصررت أن تشتري القلادة، كنت سأغضب منك جدًا، بالطبع هي أولى، ماذا تظنني؟ أتظنني قاسية القلب! ثم ألا تريديني أن أشاركك الأجر؟ سألت بغضبٍ تعلوه رِقّةً .

رد: آسف، بالطبع أنا أعلم أنك أرق نساء الدنيا، لكني كنت أرغب فقط أن أراكي سعيدة، كنت أرغب أن أرى الابتسامة في عينيك، هذا فقط ما أشعرني بالحزن. وطالما رأيت الابتسامة في عينيك فقد عادت الابتسامة لتغمر فؤادي، فلا تكثري اللوم وتقطعي سعادتي. أما عن مشاركتي الأجر، فأنا أريدك أن تشاركيني كل شيء، أظن أنك تعرفي ذلك.
ابتسمت ثم وقفت على أطراف أصابعها ووضعت رأسها على كتفه الأيسر. فلف نضال يده حول خصرها ثم احتضنها ورفعها من على الأرض.. أغمض كلاهما عينيه، وغمرتهم السعادة كأنهما يقفان في أسفل شلال لا يحمل ماء وإنما يحمل سائلاً من عالم آخر، سائل سعادة سحري.. وتوقف الزمن بهما على هذه الحالة طويلًا....

# الجمعة السادسة

بعد العودة من صلاة الفجر، ذهب نضال ليوقظ صمود لكي تصلي. ثم توجه إلى غرفة المكتب ليقرأ القرآن مع والده وابنه، بعد إنهائهما الورد جلس ثلاثتهما يتبادلون أطراف الحديث لساعة، ثم قام نضال وعز الدين إلى الشرفة لكي يتكلما كعادتهما كل يوم جمعة، وضع كل منهما كرسيه وبدأ عز الدين الكلام سائلاً بابتسامة شغف: عما سوف نتحدث اليوم يا أبي؟

نضال: امممم، ما رأيك أن نتحدث عن أنظمة الحكم الموجودة في العالم؟

عز الدين: لا مانع عندي.

# أنظمة الحكم ونظام الحكم في الإسلام

نضال سكت قليلًا يفكر كيف يبدأ ثم قال: التصنيف الأبسط لأنظمة الحكم في عصرنا هو تقسيم الأنظمة إلى نظام ملكي، ونظام ثيوقراطي، ونظام شمولي عسكري ونظام ديموقراطي. بالطبع هناك تصنيفات أعمق من هذا لكني أرى أن ذلك التصنيف كافي لفهم أغلب القضايا المتعلقة بأسلوب الحكومات وممارستها. ودعنا يا ولدي نبدأ بنظام الحكم الملكي، وذلك باعتبار أنه أقدم أنظمة الحكم .

## نظام الحكم الملكي

ومن اسمه تستطيع أن تفهم أن نظام الحكم الملكي يعني أن حاكم الدولة هو بمثابة مالك لهذه الدولة. بكلمات أخرى تعتبر الدولة في نظام الحكم الملكي ملك شخصي للملك.. والدولة تعني كل شيء من أراضي ومراعي وحيوانات وحتى البشر هم ملك شخصي للملك. لذلك فطريقة إدارة الدولة في النظام الملكي هي تابعة بشكل كامل للملك وشخصيته. فالملك إن كان عادل تعيش الدولة في عدل، وإن كان ظالم تعيش الدولة في ظلم، إذ أنه لا رقيب على الملك .

والملك يتصرف بشكل كامل في الدولة ورعاياها، فإن حصلت خصومة شخصية بين ملك وآخر وليكن بسبب خلاف على مباراة شطرنج، تتحول هذه الخصومة بشكل مباشر لخصومة بين الدولتين. وقد قامت حروب طاحنة بين دولة مجاورة تربطها ببعضها روابط اجتماعية وذلك بسبب أمزجة الملوك المتغيرة .

وبما أن الملك يملك الدولة، فمن حقه أن يصادر ما يشاء من ممتلكات رعاياه وأن يفرض عليهم الضرائب بلا رقيب، بل ومن حقه أن يقتل من يشاء. بالطبع لا يكون الأمر بهذا السوء في كل الأحيان، فأي دولة تحكمها أعراف وتقاليد تمنع الملك من الفتك بشعبه بشكل كامل، لكن نظريًا هو من حقه أن يفعل ما يشاء وأن يحكم بما يشاء. وإن لم يكن الملك شخص عادل فبالطبع، والملوك العادلون ليسوا كثرة، يعيش الشعب في بؤس وظلم شديد. وإن كان الملك أحمق فإنه يؤدي بكل الشعب للهلاك، وإن كان الملك عنده نهم لتوسيع ملكه فإنه يلقى بكامل شعبه في أتون الحرب لكي يحقق طموحه في توسيع ملكه .

بل إن الملك تبلغ سلطته في كثير من الأحيان للتحكم في دين رعيته، وقد شهد التاريخ عدة مواقف غيّر فيها الملك دينه وأجبر كافة الشعب على تغير دينه. وكان ذلك هو سبب انتشار المسيحية في أوروبا، فبتغير ملك الرومان دينه

للمسيحية تحول كل رعيته للمسيحية. بل إنه في كثير من الحضارات كان ينصب الملوك أنفسهم كآلهة.

وبالتالي فالنظام الملكي هو نظام سيء بكل المقاييس، ويؤدي دائما للجور وسيطرة مجموعة من الناس، وهم حاشية الملك وأقاربه أو من يسمون بالأرستقراطيين، على كل الممتلكات بينما يعيش بقية أفراد الشعب في فقر مدقع. كما أنه يؤدي لتقسيم الناس إلى ملوك وأصحاب أملاك وعوام، وهو تقسيم ظالم ما أنزل الله به من سلطان. فالعوام تحت النظام الملكي محكوم عليهم هم وأبناءهم أن يظلوا عوامًا إذ أنهم في النظام الملكي يعتبروا طبقة ثالثة من البشر، ليس لهم أهمية في نظر النظام الملكي إلا لخدمة الفئة الأرستقراطية الحاكمة بالإضافة للموت في الحروب .

لا يحق لأحدهم مهما اجتهد أن يخرج من فئة العوام التي قدر أن ولد فيها، وهذا بالطبع ظلم لا يقره الله أبدًا. وكم من الناس عاش طوال حياته في أماكن سكن البهائم، بينما تعيش الفئة الأرستقراطية في ترف بالغ، يهدر الواحد منهم من الطعام ما يكفي لإطعام قرية من قرى العوام. ومن يعترض أو حتى يظهر أنه يتألم لذلك الجور، يكون مصيره القتل لأنه يتجرأ على الفئة الأرستقراطية بينما هو من فئة العوام .

ومن معايب النظام الملكي أيضًا أن انتقال السلطة فيه يكون بالتوارث وهذه من أسوء الطرق لانتقال السلطة، حيث أنها لا تراعي الكفاءة أبدًا، فربما يكون ولي العهد هو أحمق مشهود له بالحمق ثم يتولى السلطة بعد موت والده الملك. وربما يكون فاسق ظالم فاسد ويتولى السلطة لأنه هو ابن الملك، ولا يحق لأي أحد الاعتراض وإلا يكون عدو للمملكة .

وذلك بالطبع يؤدي بأي مملكة، مهما وصلت من القوة للهلاك، ذلك أنه وإن كانت المملكة قوية يحكمها ملك قوي وعادل فإنه لا يشترط أن يكون نسل الملك أقوياء أو عادلون، لذلك فأي نظام يعتمد في انتقال السلطة على التوريث، فإنه في الغالب ينهار تدريجًا مهما كان قوي في بدايته، ذلك لأن النسل يضعف تدريجًا نتيجة ركون العائلة الحاكمة للترف. وأنه لا يوجد أي ضمان يضمن أن يكون ولي العهد كفأ لتولي الحكم. ويؤدي التوريث أيضا للتنازع بين أبناء الملك، ويصل الأمر أحيانًا لأن يقتل أحد أبناء الملك كافة أخوته حتى يتمكن من السيطرة على الحكم وحدة وأن يطيح بكل منافسيه .

عز الدين: إذًا فهل الخلافة الإسلامية هي نظام ملكي، فلطالما كان أسلوب التوريث هو أسلوب انتقال السلطة؟

نضال يومئ ويقول: لا، ليست الخلافة الإسلامية نظاما ملكيًا على الاطلاق. أولًا أن الأصل في تولى السلطة في الإسلام هو البيعة أو باللفظ الدارج حاليًا الانتخاب، وهذا ما أقره النبي قبل وفاته بأن ترك الأمر شورى بين المسلمين، وظل نظام الانتخاب قائمًا طوال فترة الخلفاء الأربعة، فكان الصحابة يجتمعون وينتخبوا من بينهم الأكفأ لتولي السلطة. ولم يبدأ نظام التوريث في الخلافة إلا بعد تولي سيدنا معاوية، حيث عَهِد بالخلافة إلى ابنه، وهذا مخالف للسنة وحياد عن منهاج النبوة .

عز الدين: هل هذا يعني أن الخلافة انتهت بعد الخلفاء الراشدين، إذ أن نظام تولي السلطة تحول من الانتخاب للتوريث؟

نضال: لا، لم تنتهي الخلافة حتى بعد التوريث، وإنما فقدت فقط بعضًا من خصائصها. ذلك أن الانتخاب ليس شرطًا في صحة البيعة للحاكم، وإنما هي الطريقة الأفضل لهذا الأمر، ويكفي لصحة البيعة أن يرضى الناس هذا الحاكم ولو بشكل ضمني. وطالما أن هذا الحاكم قد جاء ليحكم بالشريعة، وأنه قد تغلب وتمكن من السيطرة على الدولة فإنه يعتبر حاكم شرعي، يجب طاعته في غير معصية الله، ولا يجوز الخروج عليه، حتى وإن جار بعض الشيء بدون أن يخالف أصل الدين.

عز الدين وهو ترتسم على وجهه علامات التعجب: لكن ألا يعني هذا أن أي فرد من الأمة يستطيع أن يستولى على السلطة إن كان معه القوة ويصبح حاكم متغلب، ولا يصح الخروج عليه؟!

نضال مبتسمًا: يبدوا الأمر غير منطقي فعلًا خصوصا إذا عرفت، انه إن خرج أحد الأفراد على الحاكم فنجح يصبح حاكم متغلب، وإن فشل يصبح خارج عن الجماعة يحل دمه .

ضيق عز الدين بين حاجبيه في تعجب بينما نظر في عيني والده في إشارة منه أنه يريد إيضاحًا أكثر.

تابع نضال: لكن في الأمر كثير من المنطق وقد فصل علماء الشريعة في هذا الأمر، وخلاصته أنه لمنع الفتنة والتنازع وحقن دماء المسلمين، يجب تجريم الحركات الانفصالية والتي تؤدي لتفتت الأمة ويجب منع النزاع على السلطة وتحريمه حتى ولو كانت الطريقة التي أتى بها الحاكم للسلطة هي طريقة غير صحيحة.

ذلك أن النزاع على السلطة يؤدي إلى إضعاف الأمة وإلى هلاك عدد كبير من المسلمين، لذا إن أستطاع أحد الأفراد السيطرة على الحكم سواء بطريقة التوريث أو حتى بطريقة أخرى، فأنه لا يجوز الخروج عليه لأن هذا سوف يؤدي إلى

مقتلة كبيرة للمسلمين. وطالما أن الحاكم لا يخالف الشريعة حتى لو حدث منه بعض الجور أو ظهر عليه بعض الفسوق، طالما لم يظهر منه كفرًا بواحًا، فإنه لا يُخرج عليه أبدا لهذا السبب إلا إن كانت الفئة الخارجة لديها القدرة على السيطرة على السلطة بسهولة، وقتها يجب عليها الخروج على هذا الحاكم الجائر وإعادة الحكم السليم بأقل قدر من الخسائر .

أما أن يقوم مجموعة من الناس بفعل بعض الثورات وهم ضعفاء ليس في مقدورهم مواجهة السلطة حتى لو كانت هذه السلطة ظالمة وهؤلاء الثوار صالحون، فإن هذا الأمر سوف يتسبب في هلاكهم جميعًا وهلاك مسلمين آخرين، لذلك يحرم هذا الأمر.

عز الدين: هذا يعني أنه إن وجد حاكم متغلب يحكم بالشريعة في المجمل، فإنه لا يجب الخروج عليه حتى لو حدث منه بعض الجور، إلا إن كان في إمكان الفئة الخارجة إزاحته بسهولة؟

نضال: نعم يا ولدي، وقد فعل صلاح الدين هذا، فقد حارب البلدان الإسلامية قبل أن يتحرك لتحرير القدس وذلك لأن الحكام في هذه البلدان كانوا فسقة وظالمين، وكانوا قد تسببوا في تفتت الأمة، فحاربهم صلاح الدين وانتصر عليهم ووحد

جزء كبير من الأمة الإسلامية بهذه الحرب، ثم بعد ذلك تحرك لتحرير القدس. لكن صلاح الدين كان يحارب هؤلاء الحكام الظالمون وهو يعلم أنه قادر بسهولة على هزيمتهم. ولا يختلف أحد أن فعله هذا كان في مصلحة الأمة .

عز الدين: لكن ألم تقل إن نظام التوريث يؤدي لحدوث نزاعات بين العائلة الحاكمة، ويؤدي أحيانًا إلى أن يقتل الأخ أخوته حتى يحكم، إذًا كيف يمكن تركه وهو يؤدي للنزاعات أيضًا؟ ولماذا من البداية شرع هذا النظام في تولى الحكم؟

نضال: سؤال جميل، نعم نظام التوريث يتسبب في نزاعات، لكنها نزاعات محدودة لا يتدخل فيها أفراد الشعب في الغالب، لذلك فهي لا تقارن بالنزاعات التي ينتج عنها تقاتل بين فئتين مسلمتين.

أما عن كيف شُرع هذا الأمر في البداية، فهي قصة يطول شرحها وعليها خلاف تاريخي كبير، لكن خلاصتها أنه حدث صلح بين سيدنا معاوية وسيدنا الحسن بن علي، فترك سيدنا الحسن الخلافة لسيدنا معاوية حقنًا لدماء المسلمين وإيقافًا للفتنة، على أن يُترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين بعد موت معاوية، لكن سيدنا معاوية أوكل الخلافة لابنه يزيد مخالفًا للمعاهدة، فلما رأى سيدنا الحسين بن على هذا الأمر قرر الخروج على يزيد لمخالفة العهد ولكي يعيد

النظام الإسلامي الصحيح، وتوجه سيدنا الحسين إلى الكوفة ليجمع جيشًا للسيطرة على الخلافة، لكن حدثت خيانة لسيدنا الحسين وقُتل هو ومجموعة من أنصاره. واستتب الأمر ليزيد بن معاوية، فرأى علماء المسلمين قطع أصول تلك الفتنة وحقن دماء المسلمين، وذلك لم يكن ليتم إلا بمبايعة يزيد بن معاوية. ومن وقتها وصار توريث الخلافة هي طريقة انتقال السلطة في دولة الإسلام .

والحق يا بني، أن موقف الصحابة والمسلمين في هذا الوقت من مؤاثرة السكوت وحقن الدماء لم يكن موقفًا سليمًا على الإطلاق، وإنما كان الموقف السليم هو موقف الحسين بن علي رضي الله عنه، فقد حُقنت دماء المسلمين لفترة زمنية قليلة لكن ظلت الفتنة هذه تنهش في جسد الأمة وكانت سببًا في أغلب الانكسارات التي حدثت لها. ولو كان المسلمين وقفوا وقفة صلبة لهذا الأمر في ذلك الوقت وأزالوا هذا الجور وأعادوا طريقة الشورى والانتخاب في اختيار الحاكم لكانت حُقنت دماء أكثر بكثير من التي كانت ستسفك في هذا الوقت. وكان العلماء ومن بقي من الصحابة في ذلك الوقت من القوة، بحيث إن أرادوا خلع يزيد لاستطاعوا.

فكل النزاعات التي حدثت على السلطة في الإسلام تقريبًا كانت بسبب التوريث هذا، وكل ضعف أصاب الأمة بعد

ذلك كان بسبب أن يرث الخلافة شخص غير كفأ فيتسبب حكمه في دمار وخراب يعم أرجاء بلاد الإسلام.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "، قَيل: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"

وهذا ما فعله التوريث يا ولدي فقد أسند الأمر لغير أهله، فحتى إن تولى الحكم رجلًا عادلًا وصالحًا فمع الوقت يضعف نسله حتى يتولى الحكم أشخاصًا قليلي الكفاءة فيضيعوا الأمانة ويتسببوا في الظلم للناس وفي هلاك الأمة وتفتتها .

وقد تنبأ النبي صلى الله عليه وسلم بالحياد عن السنة الذي حدث بعد حكم معاوية رضي الله عنه فقال: "الْخِلاَفَةُ فِي أُمّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً، ثُمّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ" وقد انتهت الثلاثين سنة بالصلح الذي حدث بين الحسن بن علي وبين معاوية رضي الله عنهم جميعًا، فكانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثني عشر سنة، وخلافة على رضي الله عنه ست سنين.. وبدأ بعد ذلك حكمًا وصفه النبي بالملك، ليس لأنه يطابق الملك الذي شاع في الأمم الأخرى كروما وفارس، والذي أوضحته لكن منذ قليل، ولكن لأنه حاد عن

الخلافة الصحيحة وشبه هذا الملك في بعض الخصائص وهي التوريث والترف الشديد للحاكم وحاشيته، ولكن هذا لا يعني انتهاء الخلافة بالكلية وإنما فقدت بعض خصائصها فقط.. لذلك اعتبر العلماء أنه حتى بعد الثلاثين سنة يطلق على حاكم المسلمين خليفة، وينعقد له وجوب الطاعة في غير معصية الله.

ورغم أن هذا الحياد عن السنة لم يكن حيادًا كليًا إلا أنه تسبب في شر عظيم كما أخبرتك. لذلك، يا ولدي، لما يعيد الله الأمر للمسلمين ويجمع شملهم مرة أخرى يجب على المسلمين أن يحرصوا كل الحرص أن يكون الانتخاب هو طريقة اختيار الحاكم وليس التوريث، لكن لا يجب أن يعطى حق الانتخاب إلا لأهل القسط والمروءة أو بلفظ آخر، من تجوز لهم إدلاء الشهادة في الشرع، وسأحدثك عن هذا عندما نأتي للحديث عن الديموقراطية، إن شاء الله .

نعود لسؤالك "هل الخلافة الإسلامية هي نظام ملكي؟" قلت لك لا، لأن أسلوب التوريث في انتقال السلطة ليس من الإسلام أصلًا، لكن ليس هذا فقط الذي يؤكد أن النظام الإسلامي ليس نظامًا ملكيًا، فكما أخبرتك أن الملك في النظام الملكي يملك كل البلد بأهلها وأرضها، أما في الخلافة الإسلامية وحتى تحت نظام التوريث، الحاكم يعتبر مجرد موظف مهمته تطبيق الشريعة ولا يملك أي شيء من

الدولة، ولا يجوز له بأي صورة من الصور التصرف في ممتلكات الدولة أو ممتلكات الأفراد إلا بحكم الشرع.

في دولة الإسلام هناك تقديس للملكية الفردية وللحرية الشخصية للأفراد، وكل الافراد في دولة الإسلام هم سواسية في حكم الشرع. ولا تفريق بين الناس أمام الشرع بناءً على النسب أو الثروة، فلا توجد فئة أرستقراطية وفئة غوغائية في حكم الإسلام. لذلك فلا يمكن اعتبار نظام الحكم في الإسلام بأي شكل من الاشكل نظامًا ملكيًا.

بل إن فكرة النظام الملكي هي فكرة مخالفة بشكل مباشر للعقيدة الإسلامية، يا ولدي، ذلك أن الحكم والملك لله، فلا يجوز لفرد أن يدعى أنه يملك الناس ولا يجوز لفرد أن يحكم الناس بغير ما أنزل الله ولا يجوز لفرد أن يغير ولو قيد أنملة في شرع الله، والملوك كما أخبرتك كانوا يغيرون دين الدولة بالكامل. لذلك فإن النظام الملكي هو نظام مخالف للعقيدة الإسلامية بشكل كلي. وهو نظام فاسد في نظر الإسلام ومخالف لعقيدة المسلمين حتى ولو صدف أن كان الملك عادلًا في وقت ما.

## نظام الحكم الثيوقراطي

ننتقل الآن لنظام الحكم الثيوقراطي، ويعرف بأنه حكم رجال الدين أو الكهنة للدولة. وقد حدث هذا كثيرٍا في التاريخ، لكنه استفحل جدًا في العصور الوسطى في أوروبا حيث زادت سلطة الكنيسة حتى فاقت سلطة الملوك أنفسهم، وأصبح الكهنة والرهبان هم الحاكمون الفعليون للبلاد في أوروبا .

وقد اشتهر الحكم الثيوقراطي بالاستبداد واللاعقلانية، فقد كان الكهنة يشرعون القوانين على أمزجتهم، وكان من صلاحيتهم أن يعطوا صكوك الغفران، فيغفروا للمذنبين بسم الرب، ويوزعوا الرحمة بسم الرب، ويضمنوا الجنة باسم الرب، وفي نفس الوقت، يقتلوا من يشاؤون بسم الرب ويعذبوا من يشاؤون بسم الرب، ويطردوا من يشاؤون من رحمة الرب، وكانوا أيضا يحلون الأشياء باسم الرب ويحرمون أشياء أخرى باسم الرب. كانوا يكتبون التشريعات التي تخدم سلطانهم وتقوية ثم ينسبونها للإنجيل، وإن ظهر من يثبت خطأ هذه التشريعات اتهموه بالهرطقة أو السحر وحكموا عليه بالإعدام بأبشع الطرق.

وقد وصف الله تحريفهم للكتاب المقدس فقال في كتابه: "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ"

فلكي يكنز هؤلاء الذهب والفضة ويتملكوا السلطة ادعوا على الله ما لم يقول، واقنعوا الناس أن لهم العصمة وأنهم يحكمون بأمر الله، وأن لهم الحق أن يحلوا ويحرموا وأن يطردوا من رحمة الله من يشاؤون ويضمنوا رحمة الله لمن يشاؤون، وقد قال الله عن طريقة الحكم هذه: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ "

فقد عين هؤلاء أنفسهم ليس فقط حكامًا بل أربابًا من دون الله.. وقد ارتكب هؤلاء الكهنة أعظم الجرائم فقتلوا كل من عارض عقيدتهم التي اخترعوها بأنفسهم، وقتلوا كل من خالف الكتاب الذي كتبوه بأيديهم ثم قدسوه، وعاشت أوروبا بسبب عقولهم المتحجرة وقلوبهم السوداء عصورًا هي بحق كما أطلق عليها.. عصور ظلام .

وتعجب يا ولدي عندما تقرأ عن أوروبا في العصور الوسطى تحت حكم الكنيسة، فقد كان الناس يرون أن النظافة ضد الدين لأنها من زينة الدنيا، وأن عدم التطهر هو من الزهد، فكانون لا يتطهرون لفترات طويلة حتى أن الأمراض والأوبئة قتلت أعداد كبيرة من الأوروبيين بسبب القذارة التي كانوا يعيشون فيها. فعلى سبيل المثال قتل وباء

الطاعون، أو ما سمي بالموت الأسود، ما يزيد عن المئة مليون من الأوربيين في منتصف القرن الرابع عشر .

وكان القساوسة والطبقة الأرستقراطية يعيشون في حالة شديدة من الترف بينما يعيش بقية أفراد الشعب في حالة من الجهل والفقر المدقع. وكان القساوسة والرهبان يقولون للناس أن الفقر فضيلة وأن عليهم أن يصبروا وأنه لا يجوز لهم الاعتراض لأن ما هم فيه هو أمر الرب، في حين كان الكثير من القساوسة يلبسون الحرير والذهب. حتى أنهم لم يتورعوا رغم غناهم أن تمتد أيديهم إلى جيوب الفقراء الذين لا يمتلكون إلا القليل جدًا، فسلبوا من الفقراء أموالهم بسم صكوك الغفران التي ادعوا لأنفسهم الحق في إعطائها .

والكلام عن أحوال أوروبا في العصور الوسطى يطول وهناك كتب كاملة تتكلم عن هذا الأمر وعن فظاعة الحكم الثيوقراطي، لكني سأكتفي بذكر محاكم التفتيش والتي شنها الكهنة على كل من خالف عقيدة الكنيسة، فكانوا يقتلون كل من خالف عقيدة الكنيسة من يهود أو مسلمين أو حتى المسيحين من الطوائف الأخرى. وكانوا يتفننون في أساليب القتل، فهم حتى لا يقتلون الناس برحمة وإنما يتعمدوا تعذيبهم قبل موتهم بأفظع الوسائل، ولا تزال أدوات التعذيب في العصور الوسطى شاهدة على تلك الجرائم .

وأذكر أيضًا قتلهم للعلماء، فقد كان القساوسة ينشرون مجموعة من الخرافات والأوهام حتى يسيطروا على الناس ومع تكرار الكذبة صدقوها وآمنوا بها، وأصبحت عقيدة مقدسة لديهم. فلما بدأت الثورة العلمية وبدأ يظهر بعض العلماء في الفلك والفيزياء متأثرين بالحضارة الإسلامية، بدأ هؤلاء العلماء يقولون كلامًا مخالفًا للخرافات التي تدعيها الكنيسة، وكانوا يثبتون كلامهم بشكل عملي، فكان مصير أغلبهم أن اتهموا بالهرطقة والسحر وتم إعدامهم، وأشهر هؤلاء هو جاليليو الذي أعدم لأنه قال إن الأرض ليست هي مركز الكون كما كان يظن القساوسة .

عز الدين: لكن أليست الدولة الإسلامية هي دولة دينية، إذا هي دولة ثيوقراطية؟

نضال: سؤال جيد، هذه الفكرة من أكثر المفاهيم الخاطئة شيوعًا. بالطبع ليست الدولة الإسلامية بأي حال من الأحوال دولة ثيوقراطية. فلم يحدث في تاريخ الإسلام أن حكم دولة الإسلام رجال الدين، بل انه لا يوجد أصلا في الإسلام مصطلح رجال الدين هذا. يوجد في الإسلام علماء في الدين، وهم لا يحكمون وإنما يحكم الدولة الإسلامية السياسيين ودور علماء الدين هو نصيحة الحكام حتى لا يخالفوا الشرعية الإسلامية وحتى لا يظلموا الناس ولا يقوموا بفعل جائر، فهم بالنسبة للحكام مستشارين، فللحكام

في الإسلام مستشارين دينين كما لهم مستشارين في السياسة الخارجية ومستشارين في شؤون الحرب ومستشارين في الهندسة وغير ذلك .

فعلماء الدين هم علماء مثل العلماء في المجالات المختلفة مهمتهم شرح الشريعة وتبينها للناس، ولا يحق لهم ابدا التشريع، فلا يحق لهم التحليل أو التحريم ولا يحق لهم إعطاء صكوك الغفران كما يفعل القساوسة، ولا يحق لهم ضمان الرحمة أو إيقاع العذاب. هم مجرد أشخاص عاديون ليست لهم أي عصمة، وليس لهم أي فضل على غيرهم من الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح .

دولة الإسلام، يا ولدي، هي دولة دينية نعم، بمعنى أنها دولة تحكم بشرعية دينية شريعة منزلة من عند الله ليس من حق أحد ولا حتى علماء الدين تغيرها أو التلاعب فيها، لكنها ليست دولة ثيوقراطية لأنه لم يحدث أبدًا أن حكمت دولة الإسلام من قبل رجال دين .

ولم يحدث أن رضي مجموعة من المسلمين حكمًا ثيوقراطيًا اذ أن التدخل في التشريع يعتبر كفر في الإسلام. ولكي أكون دقيقًا لم يحدث ذلك إلا عند الشيعة وهؤلاء الفئة هم فئة ضالة مضلة، فهم أقرب للنصرانية من الإسلام فقد أتخذوا أئمتهم آلهة وأرباب كما اتخذ النصارى رهبانهم وقساوستهم

آلهة وأرباب، وهؤلاء لا يمتون للإسلام بأي صلة، إلا ادعائهم أنهم مسلمين.

## نظام الحكم الشمولي

سكت نضال قليلاً وتنهد ليأخذ نفسه ثم تابع: النوع الثالث من الأنظمة، يا ولدي، هو النظام الشمولي العسكري، وأظن أنك قد سمعت جيداً عن ممارسات هذا النوع من الأنظمة في الأمسية الماضية، فالشيوعية هي أحد أبرز الأمثلة لذلك النظام، لذا فلن أتطرق كثيرًا لهذا النوع من الأنظمة. لكن في الملخص هي أنظمة حكامها مجموعة من المنحرفين والمختليين نفسيًا، هؤلاء المنحرفين يتسببون في فساد عظيم لبلادهم وللبلاد المجاورة. وهم يتحركون طبقا لبعض الأوهام التي تصورها لهم نفوسهم المريضة، وقد تسبب هؤلاء المختليين خلال القرن الماضي فقط في قتل ما يقرب من مئتي مليون إنسان .

ويندرج تحت هذا النوع من الأنظمة، الشيوعية، والنازية، والفاشية والأنظمة الناتجة عن انقلابات عسكرية كانقلاب تشيلي وانقلاب الأرجنتين. وهذه الأنظمة هي أقصر الأنظمة عمرًا رغم أن الشعوب الواقعة تحت وطأة هذه

الأنظمة تشعر أنها سوف تستمر للأبد، لكن سرعان ما تختفي تلك الأنظمة بين ليلة وضحاها، تنهار بشكل مفاجئ كما تظهر بشكل مفاجئ، تنهار في عز قوتها وجبروتها. وذلك لأنها أنظمة مخالفة لسنة الله وفطرته وتعتمد على الخوف وعلى الدعاية الحمقاء جدا وهذا أمر وإن كان له تأثير قوي في البداية، فإنه لا يمكن أن يصمد طويلاً. ولو بحثت في كل الأمثلة التي ذكرتها لك منذ قليل ستجدها جميعًا قد اختفت تمامًا وصارت مجرد ذكرى أليم، وصفحة سوداء من تاريخ البشرية.

## النظام الديمقراطي

الآن يا عز الدين نأتي على ذكر أهم الأنظمة الحاكمة للعالم في عصرنا وهو النظام الديمقراطي. فهل تذكر ماذا أخبرتك عن الديمقراطية في بداية حديثنا يا عز الدين؟

عز الدين يسكت قليلًا وينظر لأعلى كأنه يسترجع ذكرى بعيدة ثم يقول: أذكر أنك قلت، يا والدي، أن التعريف الشائع للديمقراطية هو أن الديمقراطية هي حكم الشعب للدولة. وقد أخبرتني أن هذا الأمر هو مجرد شعار لكن الحقيقة ليست كذلك أبدًا، لكنك أرجأت ذكر السبب إلى وقت آخر.

نضال: عظيم يا عز الدين، وقد حان الوقت لتعرف السبب.

في الواقع إن الديموقراطية إذا ما قورنت بالأنظمة المذكورة سابقًا، فهي أفضل بكثير. فالناس تحت الحكم الديموقراطي يشعرون أنهم أحرارًا، والشعور بالحرية هو شيء مهم جدًا فميزة الإنسان الأهم هي الحرية. والحرية تحت الحكم الديموقراطي لا تتوقف عند مجرد الشعور فالناس يمارسونها أيضًا، فالناس لهم الحرية في أن يقولوا ما يشعرون به، يفعلوا ما يشعرون أنه صوابًا، ويعترضوا على ما يشعرون أنه خطأ بدون خوف من بطش الحكومة .

لكن السؤال المهم، هل ما يشعر الناس به تحت الحكم الديموقراطي هو شعورهم هم أم أنه شعور دخيل تم زرعه داخل نفوسهم؟

عز الدين وقد قرب بين حاجبيه يقول متعجبًا: وكيف يمكن زرع مشاعر دخيلة داخل نفوس الناس؟

نضال: أنت تعرف.

عز الدين: امممم، تقصد الإعلام .

نضال: بالضبط، أحسنت.

يقول نعوم تشومسكي في صدر كتابه السيطرة على الإعلام: " لنبدأ أولا بطرح مفهومين أو تعريفين مختلفين

للديموقراطية. المفهوم الأول يعتبر أن المجتمع الديموقراطي هو المجتمع الذي يملك فيه العامة الوسائل الازمة للمشاركة الفعالة في إدارة شئونهم، وأن تكون وسائل الإعلام منفتحة وحرة. إذا بحثت عن المعنى اللغوي لكلمة الديموقراطية في القاموس، فستجد ذات التعريف. أما المفهوم الآخر للديمقراطية، فهو أن يمنع العامة من إدارة شئونهم وكذا من إدارة وسائل الإعلام التي يجب أن تظل تحت السيطرة المتشددة. وقد يبدوا هذا مفهوما مستهجناً أو شاذاً للديموقراطية، ولكن من المهم بمكان فهم أن ذلك هو المفهوم الحاكم، وفي واقع الأمر هو ليس فقط المفهوم المعمول به فعلياً لفترات طويلة ولكنه أيضاً له أساس من الناحية النظرية". [19]

يوضح تشومسكي المفهوم الذي ذكرناه منذ قليل، وهو أن الديمقراطية، حقيقتها تختلف عن تعريفها المعلن. فمالكي الأموال والسياسيون يسيطرون على الإعلام وعن طريقه يغيرون قناعات الناس وأفكارهم بحيث تتناسب مع رغبات مالكي الأموال والسياسيون هؤلاء، فيختار الناس هذه الأفكار ويدافعون عنها ويطالبون بتنفيذها، فيقوم السياسيون بعد ذلك بتنفيذ هذه الأفكار مظهرين نزولهم على رأي الناس وآرائهم، وفي الواقع هذه الآراء ليست إلا آراء السياسيين أنفسهم التي زرعوها في ضمائر الناس .

وتستطيع أن تلاحظ هذا بسهولة في الكثير من الأمثلة، أشياء عدة كان الناس يكرهونها ويحاربونها ثم بعد فترة تجد أنهم قد تحولوا جميعا لمناصرين لها. لكن من أكثر الأمثلة وضوحًا هو عندما تحاول الحكومات الديموقراطية أن تقنع شعبها بشن حرب على دولة أخرى. تقنعهم بالتضحية بأبنائهم وأموالهم والأضرار بمصالحهم، تقنعهم بقتل أناس آخرون. ومن أشهر الأمثلة على هذا حرب العراق الأخيرة، فقد أقنعت الحكومة الأمريكية، باستخدام حملة إعلامية، الشعب الأمريكي أنه لابد من حرب العراق وغزوها، واستخدمت في ذلك الاضطراب الناتج عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر .

وقد نجحت هذه البروباجندا نجاحًا باهرًا ونزل الشعب الأمريكي إلى الشوارع يطالب الحكومة بمحاربة العراق التي بث الإعلام حملة متواصلة تدعي أن العراق متورطة في أحداث الحادي عشر من سبتمبر وأنها تملك أسلحة دمار شامل. بعد ذلك خرج جورج بوش رئيس أمريكا على الشعب الأمريكي ولبس بدلة المحارب المدافع عن العدالة والحرية وعن شعبه، وقال للشعب أنه سينزل على رغبتهم وسيغزو العراق .

وكانت نتيجة ذلك أن قتل في العراق ما يقرب من الخمسة ملايين أغلبهم من الأبرياء، أطفال ونساء وشيوخ ورجال.

وقتل أيضا من الجيش الأمريكي الآلاف. لكن بعد فترة ظهر كذب الإعلام الأمريكي والحكومة الأمريكية، فلم يتم العثور على أي أسلحة دمار شامل، كما ثبت فيما بعد أن العراق لم يكن لها أي علاقة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر.

واتضح أن الحكومة الأمريكية لم تكن تسعى إلا للسيطرة على النفط العراقي وقد اختلقت كل تلك الأكاذيب لاقناع شعبها بهذه الحرب التي أضرت كثيرا بالشعب الأمريكي نفسه، علاوة على قتل ملايين الأبرياء. وقد علم غالبية الشعب الأمريكي أنهم قد خُدعوا لكن بعد فوات الأوان .

يتضح من هذا أن مالكي الإعلام يستطيعون التلاعب بمشاعر الناس وأفكارهم، وزرع أفكار ومشاعر داخلهم. وقد زاد الوضع تعقيدا بعد دخول الأنترنت الترسانة الإعلامية. فصار في إمكان مالكي الإعلام إرسال رسائل خاصة لكل شخص واللعب على المشاعر الكامنة في ضمير كل شخص. ويزيد الطين بلة أن الناس يُستفتون على أشياء لا يعلمون عنها شيء، وليسوا متخصصين فيها، لذا فهم ينساقون تبعا للغرائز والمشاعر بشكل كامل، وليس للمنطق في تحركهم نصيب.

لذلك لا يمكن أبدًا اعتبار نتيجة استفتاء أو نتيجة انتخابات أنها هي رغبة الشعب وإرادته، وإنما هي رغبة مالكي الإعلام. والشعب دوره مجرد صورة ظاهرية، عروسة ماريونيت يحركها مالكي الإعلام لإكساب رغباتهم شرعية.. فهي رغبات الشعب وليست رغباتنا، ونحن السياسيون نزلنا على رأيهم وأي ضرر أو جرائم تحدث فهي كانت اختيار الشعب من البداية .

عز الدين: هذا يعني أن مالكي الإعلام يمكن أن يشكلوا العالم على الطريقة التي يحبون، ويحركونه ليخدم مصالحهم مهما كانت سيئة وشريرة.

نضال يومئ: بالضبط يا عز الدين.. وهذا هو عيب الديمقراطية القاتل.

عز الدين: لكن ألم تقل لي أن اختيار الخليفة في الإسلام هو في الأصل يجب أن يكون بالانتخاب؟! وقلت لي أيضًا قبل هذا أن الحاكم يجب أن يستشير الناس في أمور الدولة التي لم ينزل فيها حكم شرعي. إذًا فالنظام الإسلامي مشابه للديمقراطية، أليس كذلك؟

نضال: في الإسلام بعض الأشياء المشتركة مع الديمقراطية، لكنه بالطبع يختلف عنها في أمور شتى. فبالنسبة لانتخاب الحاكم في الإسلام لا يمسح بالانتخاب إلا

لأصحاب المروءة، أي هؤلاء الناس الذين لم يعرف عليهم الكذب أو شهادة الزور ولم يقوموا بجريمة مخلة بالشرف كالسرقة والزنى. أما في الديمقراطية فالجميع يسمح له بالانتخاب مهما بلغوا من الخسة والفسوق، وبالطبع الفاسق في الغالب سيختار حاكم يخدم مصالحه، حاكم فاسق مثله. لكن هذا لا يحدث في الإسلام، مما يقلل احتمالية الاختيار غير السليم للحاكم .

بالطبع لا زال هناك احتمالية أن يتم اختيار حاكم غير كفئ لكن على الأقل هذه الطريقة قللت الاحتمالية بشكل كبير، وقللت قدرة الإعلام على التلاعب بالنتائج، إذ أن أهل الفضل ستميل قلوبهم في الغالب لأهل الفضل .

بالنسبة لموضوع الشورى فهناك اختلاف كلي بين الشورى والديمقراطية، أولًا: فكما ذكرت لك منذ لحظة أنه لا يسمح للفرد بأبداء رأيه إلا إن كان من أهل المروءة، ثانيا: لا يستفتى كل الشعب في كل الأمور، بل في نظام الشورى الإسلامي يستفتى أهل الطب في أمور الطب وأهل الهندسة في أمور الهندسة وأهل الحرب في أمور الحرب، وأهل القانون في أمور القانون وأهل السياسة في أمور السياسة، وبالتالي هذا يقلل جدًا احتمالية التلاعب بأفكار الناس، فتقريبًا من المستحيل أن تتلاعب بأفكار خبير في مجال ما في استفتاء في نفس مجاله. أما في الديمقراطية فالناس

جميعا يستفتون.. الجاهل والعالم، الأحمق والعاقل، الخبير وغير الخبير. بالتالي يسهل جدًا التلاعب بهؤلاء الناس إذ أنه من الصعب جدًا على غير الخبير أن تكون لديه المعلومات الكافية للتأكد من صحة ما يقال له .

وكم من استفتاء يذهب الناس إليه تحت النظام الديمقراطي فيختارون نعم بدون أن يقرئوا حتى بنود هذا الاستفتاء وتكون كافة معلوماتهم عنه من الإعلام، وحتى القلة التي تقرأ بنود الاستفتاء أغلبها ليس خبيرًا في تلك البنود وبالتالي حتى من يقرأون لن يدركوا بشكل كامل صحة الأمر من بطلانه .

بناءً على هذا تؤدي الاستفتاءات الديمقراطية في أغلب الأحيان إلى الموافقة على الرأي الذي تبناه الإعلام بدون تفكير ولا تعقل، فأغلبهم لم يعرفوا شيئا عن الاستفتاء إلا من الإعلام وحتى القلة التي عرفت أغلبها لم تفهم. وهذه المشكلة ليست موجودة في الشورى الإسلامية على الإطلاق، لأنه لا يستفتى في مجال ما إلا الخبراء فيه.

الاختلاف الثالث والأهم قد ذكرته أنت، هل تستطيع أن تعيده علي؟

عز الدين: امممم، دعني أفكر قليلًا....... أظن أنك تقصد عدم جواز الاستفتاء على ما نزل فيه حكم شرعي في نظام الشورى الإسلامية، أليس كذلك؟

نضال: أحسنت يا عز الدين، هذا فرق عقائدي بين الشورى الإسلامية وبين الديمقراطية. فالديمقراطية شعارها الذي ترفعه هو أن السيادة للشعب، أي أن ما يقره الشعب يصبح قانونًا حتى ولو كان هذا الأمر واضح البطلان. ونتيجة هذا فقد أُقر شرب الحشيش في بعض البلدان، وأُقر الزنى والشذوذ في كافة البلدان غير الإسلامية تقريبًا. فطالما السيادة للشعب فأي فكرة مهما كانت باطلة يمكن باستخدام البروباجاندا الإعلامية إقناع الشعوب بها، ثم بعد ذلك إقرارها بحجة أن الشعب قد أقرها، وهذا يكسبها شرعية كاملة في النظام الديمقراطي، ولا يمكن أن تلام الحكومة على هذا الأمر رغم أنها في الغالب كانت من أقنعت الشعب بشكل غير مباشر بهذا الأمر. بهذه الطريقة تم تحليل الفواحش حتى صارت أشياء عادية في عيون الناس بل صار منكريها محل تهكم واستهزاء.

أما في الإسلام فلا يجوز الاستفتاء على ما نزل فيه نص شرعي، بهذه الطريقة يُغلق الإسلام الباب على هؤلاء الذين يسعون لنشر الفواحش والإفساد في الأرض من أن يلوثوا العالم بضلالاتهم وغيهم. ففي الإسلام السيادة لله وحدة ولا

يجوز أبدا تقديم رأي، كائن من كان، على حكم الله ولو كان هذا هو رأي كافة الشعب .

امممم، أظن أنك قد فهمت النظام الإسلامي يا عز الدين، وعلمت أنه نظام منطقي وواقعي جدًا، يأخذ من الأنظمة الأخرى ما يفيد الناس ثم يزيد علي هذه الإفادة، ويترك تمامًا كل ما يضر الناس ويرفضه.

سكت نضال قليلًا وانفرجت شفتاه ببسمة حانية ثم تابع: وأظن أننا قد أنهينا الآن ما اتفقنا أن نتناقش عنه منذ ستة أسابيع.

عز الدين: هل انتهينا، لكني أظن أن هناك أشياء كثيرة عليا أن أتعلمها .

يضحك نضال ثم يقول: بالطبع هناك أشياء كثيرة عليك أن تتعلمها، لكنك الآن بلا ريب تعرف معلومات أكثر مما يعرفه معظم سكان العالم، المهم الآن أن تعيها وتفهما جيدًا.

عز الدين: هل سنتحدث سويا الجمعة القادمة.

نضال: إن شاء الله، لكني لازلت لا أعلم عن أي شيء سيدور حديثنا، يمكننا أن نفكر سويًا خلال الأسبوع وبلا شك سنجد شيئًا شيقًا نتناقش فيه إن شاء الله.

هيا. هيا، نقوم فقد جعت جدًا سأذهب إلى المطبخ أساعد أمك في تحضير الطعام.. أظنها تصنعه الآن.

عز الدين: وأنا سأذهب لأجلس مع جدي.

نضال: جيد.. لكن لا تزعجه بلعبك.

عز الدين: حاضر.

## حكاية ما قبل النوم

ظل عز الدين طوال اليوم يفكر في كل ما أخبره به والده خلال ستة أسابيع، فوجد أن قوة أعداء الحق كبيرة جدًا وقوة المسلمين في غاية الضعف وإنهم بالإضافة لضعفهم المادي فإيمانهم ليس أقل ضعفًا. كان عز الدين يسأل نفسه هل من الممكن أن ينصلح حال المسلمين فجأة؟ كيف من الممكن أن ينتصروا على أعداء الدين حتى إن حدثت المعجزة وانصلح حالهم وأعداء الدين بهذه القوة المادية الهائلة؟

ظل عز الدين في حيرة من أمره حتى أنه عندما أتى الليل لم يستطع النوم، فقام وأضاء النور وجلس على سريره يفكر، لقد قال له والده أن الله سيلهم المجموعة المنصورة أسباب النصر، لكنه لم يقل شيئًا عن هذه المجموعة المنصورة، وكيف يمكن أن توجد أصلًا في ظل هذا الغي والضلال الذي يجتاح العالم .

وبينما كان عز الدين يفكر في غرفته مرت والدته، ولاحظت أن ضوء الغرفة مضاء، فقلقت عليه وتوجهت إلى غرفته لتتفقد الأمر. دقت الباب برفق فرد عليها عز الدين وقال: تفضل. فتحت صمود الباب ودخلت فوجدت عز الدين

جالسًا على سريره في وضع القرفصاء واضعًا يده على خده، فتعجبت وقالت في نفسها، ماذا يفعل هذا الولد في هذه الساعة بحق الله، ولماذا هو جالس هكذا كأنه يحمل هموم العالم.. بادرها هو بالكلام فقال بعد أن رفع يده من على خده ونظر إلى والدته الواقفة قرب الباب: هل تريدين مني شيئًا يا أمي؟

ردت: رأيت غرفتك مضاءة فقلقت عليك، ما الذي يشغل ذهنك بهذه الطريقة ويوقظك حتى هذه الساعة من الليل؟

رد: بعض الأسئلة تدور في ذهني ولا أجد لها إجابة.

قالت مبتسمة: امممم، وهل لي أن أعرفها، لعلي أساعدك في إيجاد إجابات؟

رد: بالطبع يا أمي، بكل سرور.

أغلقت صمود الباب ثم توجهت إلى سرير عز الدين، جلست على السرير وأسندت ظهرها إلى ظهر السرير، جاء عز الدين ووضع رأسه في حجرها وتمدد على السرير، فوضعت يدها على رأسه وبدأت تداعب شعره بأناملها، وكان لذلك مفعول الخدر على رأس عز الدين، فقد كانت حركات أناملها بمثابة دواء لرأسه أزال الألم الناتج عن التفكير الطويل.. بعد أن أستقر كلاهما في مكانه بادرته قائلة بينما تداعب شعره بيدها: هيا احكي لي.

حكى لها عز الدين الأسئلة التي تدور في ذهنه، وكيف أنه ظل طوال اليوم يفكر فيها لكنه لم يوفق لإيجاد إجابة .

قالت صمود بعد أن فكرت قليلًا: لدي حكاية لك ربما تجيب عن بعض هذه الأسئلة، ولعلها تساعدك على النوم، والجميل فيها أنها حكاية حقيقية .

رفع عز الدين رأسه ونظر إلى أمه وقال: جميل يا أمي، هيا احكيها لي بسرعة، لقد اشتقت إلى حكاياتك.. فمنذ أن ولدت جهاد وأنتِ تقريبا لم تحكي لي أي حكاية.

صمود: آسفة يا حبيبي، فهي صغيرة وتحتاج لعناية، ولا يمكنني تركها وحدها.. ولولا ذلك لما بَعُدتُ عنك لحظة.

عز الدين: أتفهم يا أمي، لا عليكِ.. هيا فلنستمع إلى حكاية اليوم.

صمود: سوف أحكي لك حكاية التتار.

عز الدين باستغراب: من هم التتار؟

صمود: التتار، يا صغيري، هم قبائل مغولية سكنت وسط آسيا، ولم يكن للتتار تأثيراً كبيرًا في التاريخ، إلى أن جاء رجل أسمه جانكيس خان استطاع تجميع هذه القبائل وتحويلها إلى جيش غاية في القوة، وطور أساليب قتالية جديدة مكنته من أن يسيطر على مساحة كبيرة من آسيا ثم

تحرك إلى شرق أوروبا وهزم كبار الدول هناك وسيطر على مساحة كبيرة من أوروبا، وفي فترة قصيرة جدًا استطاع جانكيس خان أن يحكم دولة قال الكثير من المؤرخين أنها أكبر الدول مساحة في التاريخ .

وقد برع التتار أيضا في الحرب النفسية، فكانت الممالك تسلم لهم وتفتح لهم أبوابها بدون حرب، فقط من الخوف والرعب الذي استطاع التتار أن ينشروه في كل أنحاء العالم. كان الجميع يخافهم، ولم تستطع أي دولة التصدي إليهم .

وكان هؤلاء التتار في غاية القسوة فكانوا إذا دخلوا أي بلدة دمروها تمامًا وقتلوا كل من فيها ممن يقدرون على حمل السلاح وحتى الأطفال الذكور كانوا يقتلونهم، وكانوا يغتصبون النساء حتى الموت ومن بقي منهن حيًا كان يوزع على قادة الجيش كرقيق. كانوا في غاية الوحشية وكأنهم شياطين في صورة بشر. بل إنهم قد أشاعوا بين الناس أنهم ليسوا بشرًا وإنما هم كائنات أخرى وحشية، حتى يلقوا الرعب في كافة البلاد .

وكان نهمهم في التوسع والتدمير لا ينقطع. وبعد أن سيطروا على أغلب آسيا وعلى شرق أوروبا، دأبوا يفكرون في السيطرة على العالم الإسلامي .

عز الدين مقاطعًا: وكيف كان حال المسلمين في هذا الوقت يا أمي؟

صمود: كانوا في غاية الضعف.. فقد انشغل الخليفة العباسي وحاشيته بالترف وركنوا للدنيا، فانتشرت الفواحش والمعاصي في أرجاء العالم الإسلامي كما تفتت دولة الإسلام وتشرذمت إلى دويلات غير تابعة لسلطة الخليفة إلا بطريقة شكلية، بينما في الواقع، هي تتمتع بحكم ذاتي. ولم يكن الخليفة يحكم بالفعل سوى بغداد عاصمة الخلافة في هذا الوقت .

وكان جيش الخلافة في بغداد جيش هزيل وضعيف جدًا، ولم تكن مهمته سوى الحماية الشخصية للخليفة وحاشيته ولم يكن مدربًا على الحروب. كان الأمر في غاية الحرج، وكانت دولة الإسلام في هذا الوقت عرضة للإفناء الكامل بعد إعلان التتار تقدمهم تجاه دولة الإسلام.

مات جانكيس خان قبيل التحرك لغزو الدولة الإسلامية وتولى قيادة جيوش التتار ابنه هولاكو وكان مثل أبيه بالضبط، وقد استطاع بسهولة السيطرة على دولة التتار وبمجرد توليه الحكم في المنطقة بدأ يكمل ما بدأه أبيه .

كان جميع المثقفين في ذلك الوقت يرون هذا الأمر في حسرة شديدة، وقد تيقنوا من معرفتهم حالة دولة الإسلام وقوة التتار أن دولة الإسلام ربما تنتهي من الوجود .

لكن الله، لم يكن ليسمح أن تنهار أمة الإسلام بالكامل، فمن يُبلِّغ رسالة الإسلام للناس إن أبيدت دولة الإسلام! فسيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، هو خاتم الأنبياء ولا نبي بعده وقد أُوكل الأمر في تبليغ رسالة الله إلى الناس إلى كافة المسلمين، فإن فني المسلمين فنيت الرسالة. لذلك اعلم يا صغيري أن أمة الإسلام تمرض لكنها أبدًا لا يمكن أن تموت.

سكتت صمود لبرهة ثم تابعت: لكن كل الشواهد المادية في هذا الوقت، كانت تقول إنها نهاية أمة الإسلام. فالوهن والضعف كان قد اجتاح ربوع الأمة الإسلامية والتتار على الأبواب. وكان سؤال مثل أحد أسئلتك يسأله المثقفون في هذا الوقت: "هل من الممكن أن ينقلب الحال في لحظة ويستيقظ المسلمين ويهزموا قوة التتار التي لم تُهزم أبدًا؟"

وقد أجابت الأيام عن هذا السؤال: فهذا ما حدث يا صغيري بالفعل، فقد سخَّر الله مجموعة من عبادة الصالحين ليقودوا الأمة خارج غياهب الظلمات التي كان يقبع فيها أبنائها، وتم هزم التتار وسحقهم.

كانت تتكلم بينما تمسد شعر عز الدين بيديها، وهو كان مسترخيًا في حجرها فاتحًا عينه منصتًا لكلامها.

فبعيدًا عن ساحة الأحداث المشتعلة بالقرب من بغداد، كان في مصر رجل صالح وعالم دين ألهمه الله بالخطر الذي على وشك أن يفتك بالأمة، فهب هذا الرجل يسعى بين الناس ينصحهم ويخبرهم بالخطر الذي يحيط بهم وأنهم إن لم يعودوا لدينهم فالهلاك مصيرهم. هذا الرجل يا صغيري هو الشيخ العز بن عبد السلام.

ففي حين رأى أغلب المثقفين وحتى علماء الدين، الذين أدركوا خطر التتار، أنه لا مفر من الهلاك أيقن هذا الرجل أن أمة الإسلام لا يمكن أن تفنى وأن الله ناصرها مهما حدث، وأخذ على عاتقه إيقاظ الناس من غفوتهم .

جاب كل الأنحاء ينصح الناس ويعلمهم دينهم ويخبرهم بالخطر الذي يحيط بهم، ورغم أن الاستجابة كانت طفيفة وكان الناس في مصر في غفلة شديدة، إلا أنه لم يكل ولم ييأس ولم يتوقف، فهو يعلم يقينًا أن الحق منتصر، لكن على أهل الحق أن يصبروا حتى يمنحهم الله النصر .

وهو العالم الفقيه العابد يعلم أن الحق لا يحتاجه وإنما هو من يحتاج الحق، هو من يحتاج أن يكون في صف الحق، فالحق منتصر به أو بدونه.. لكنه يريد أن يقبضه الله بينما

يسير في طريق الحق، وحتى لو لم يحالفه النصر أو قتل قبل تحقيقه فسيعطيه الله الأجر على عمله وسيرسل الله بعده عبادًا آخرين ينصر الله الحق على أيديهم.

كان الشيخ العز بن عبد السلام يعمل في مصر بدون كلل، وكان التتار على حدود العراق يدكون قرى الإسلام الأخرى. أما الخليفة العباسي فبينما كانت البلاد الإسلامية تنتهك وتحرق، والمسلمون يذبّحون وتغتصب نسائهم، كان هو غافل في ترفه في بغداد. لكن الأمر لم يظل هكذا طويلًا فسرعان ما أجتاح التتار كل القرى الإسلامية حتى وصلوا إلى بغداد مقر الخلافة وحاصروها، ثم أرسلوا رسالة للخليفة يأمروه بالاستسلام وإلا فسيكون مصيره الهلاك هو وكل أهل المدينة وأنهم لن يرحموا أحدًا، أما إن استسلم فبإمكانهم التفاوض معه ولن يدمروا المدينة .

فلم يكن من الخليفة الخائف إلا أن قبل الاستسلام، فأرسل له هولاكو رسالة جاء فيها أن يخرج الخليفة من المدينة ماشيًا إلى خيمة هولاكو حتى يتفاوض معه وأن يأتي بكافة القادة والعلماء معه في جلسة التفاوض. فقبل الرجل الخائف وهو خليفة المسلمين هذا الذل والعار وخرج في موكب مع أغلب القادة والعلماء المسلمين في بغداد ذاهبًا بنفسه إلى خيمة هولاكو، وعندما وصل الموكب إلى الخيمة أستوقف

الحراس الموكب وقالوا إنهم لن يسمحوا إلا للخليفة وبعض قادته أن يقابلوا هولاكو قائد التتار .

فرضخ الخليفة لكلامهم، وبمجرد دخوله الخيمة قتل جنود التتار كل من استوقف في الخارج، أما الخليفة فقد استبقوه لكي يأمر المسلمين في بغداد أن يسلّموا دون قتال ولكي يدل التتار على كنوز الدولة الإسلامية المُخفاة هناك. فأمر الخليفة الجبان الناس بالاستسلام، وأمر هولاكو باستباحة بغداد بالكامل، فقتل التتار كل من قابلهم من المسلمين وحرقوا المدينة بالكامل بعد أن نهبوها. أما الخليفة فقد أعدموه بطريقة مهينة جدًا، فقد حكموا عليه بالركل بالأقدام حتى الموت.

انتقلت هذه الأخبار إلى مصر ودب الذعر في قلوب سكانها وبدأوا أخيرًا يشعرون بالخطر الذي يحيط بهم. وكانت مصر في حالة من عدم الاستقرار والتصارع على الحكم، وسرعان ما اقترب التتار إلى حدود مصر، مدمرين في طريقهم كل ما يقابلونه من قرى إسلامية، وأرسلوا رسالة إلى قصر الحكم في مصر يأمروا الحاكم أن يستسلم وإلا سيفتكون بكافة أهل مصر ولن يرحموا أحدًا، وفي هذه اللحظة نفذ أمر الله وقدره لحماية الأمة فولي حكم مصر رجل صالح وقائد بارع وأحد تلاميذ الشيخ العز بن عبد السلام، تولى الحكم في مصر سيف الدين قطز .

وكان رده على رسالة التتار الوقحة وأفعالهم الشنيعة في حق المسلمين، أن قطع رؤوس حاملي الرسالة وأمر بتعليقها على باب زويلة حتى يرسل رسالة للتتار أنهم قادمون على قوم مختلفون عن سابقيهم. وحتى يرفع الروح المعنوية لأهل مصر ويعلمهم أنهم قادرون على مواجهة التتار، وأن قائدهم ليس خائفًا .

وبدأ قطز يحشد الجيش ويجهزه وجاب الشيخ العز بن عبد السلام كافة أرجاء مصر يجمع من الناس التبرعات لتجهيز الجيش ويشجع القادرين على حمل السلاح أن ينضموا إلى الجيش الإسلامي، ويرفع الروح المعنوية في قلوب المسلمين، ويأمرهم بأن يصلحوا أحوالهم حتى ينصرهم الله.

وفي طرفة عين يا ولدي وبقدرة إلهية اختفت كافة الخلافات والصراعات على الحكم، واصطف كافة المسلمين في مصر خلف قائدهم قطز، وترك الناس المعاصي وتابوا إلى الله، وتحولت مصر إلى دولة إسلامية تعبد الله بحق .

أما قطز فقد أخذ بكافة الأسباب الدنيوية حتى يحشد جيشًا قويًا، وأخذ الشورى من كل الحكماء والعلماء في مصر، واعلم يا ولدي أن من صفات الجيش المنتصر أن يطلب قائده الشورى، فالقادة الذين لا يقبلون إلا آرائهم مهما كانوا مهرة تلحقهم الهزيمة في النهاية، لذلك أمر النبي، صلى الله

عليه وسلم، حكام المسلمين بالشورى في كافة القرارات خصوصا المصيرية منها.

وكان قطز، يا صغيري، حاملاً لكافة الصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد المسلم، فقد كان بالإضافة لسماع المشورة من أولي الحكمة، كان يأخذ بالأسباب الدنيوية، لكنه لا يركن إليها ويعلم يقينًا أن النصر من عند الله وليس بالأسباب، وكان يشارك بنفسه في كافة الأعباء ويشرف بنفسه على التدريبات، ولم يكن من هؤلاء القادة الذين يجلسون في القصور ويأمرون الناس بالعمل، هؤلاء لا يمكنهم أن ينتصروا. أما القائد الناجح فهو الذي يضرب المثل والقدوة للناس ويكون في مقدمة الصفوف، وكان قطز كذلك.

وفي فترة قصيرة حُشد الجيش، وأعد قادة الجيش وعلى رأسهم قطز خطة محكمة لملاقاة التتار، فتحرك الجيش المسلم في اتجاه التتار ولم ينتظروهم حتى يأتوا إليهم. وقد فعلوا هذا حتى إذا انهزموا كان في مقدورهم أن يعودوا إلى مصر ويتحصنوا بقلاعها ويعادوا القتال مرة أخرى، أما إن انتظروهم حتى يصلوا إلى مصر فإن حدثت الهزيمة فستنهار الدولة بالكامل ولن تصبح هناك فرصة أخرى للنصر .

وقد وصل المسلمون، يا صغيري، إلى ساحة القتال قبل أن يصل التتار حتى يستقروا هناك ويرتبوا صفوف الجيش، وقد اختار المسلمون ساحة المعركة في منطقة عين جالوت، وهي وادي بين جبلين، حتى إذا دخل هذا الوادي جيش التتار انقض عليه جيش المسلمين وحاصروه من الأمام ومن الجانبين وأوقعوا به الهزيمة. ولاحظ يا ولدي كيف أخذ المسلمون كافة الأسباب رغم يقينهم الكامل بأن النصر لا يكون إلا من عند الله، وثقتهم أن الله سيؤيدهم بنصره .

وقد حدث ما خطط له قادة المسلمين، فبعد أن دخل التتار الوادي، انقضت عليهم جنود المسلمين من الثلاث جوانب واستطاعوا أن يفتكوا بمقدمة الجيش التتاري، لكن التتار لم يكونوا بالخصم السهل، فاندفعوا بقوة تجاه الجيش الإسلامي مما أحدث بعض الاضطراب في صفوف الجيش وبدأ بعض الجنود بالهرب، فلما رأى القائد قطز ذلك ألقى بخوذته على الأرض وصاح بأعلى صوته "وا إسلاماه" وحمل الراية وهجم على جيوش التتار، فلما رأى المسلمون هذا وسمعوا صيحة قطز "وا إسلاماه" زال الخوف من قلوبهم، وعادوا وقاتلوا بشراسة وشجاعة وفتكوا بجيش التتار بالكامل .

ولم يكتفي قطز بذلك بل تتبع الجيش التتاري حتى حرر كل المدن التي سيطر عليها التتار واستطاع بعون الله أن يمحو دولة التتار من التاريخ، ولم يسمع عن دولة التتار بعد تلك

الهزيمة الساحقة، وأنهيت أسطورتهم على يد جيش مسلم لم يكن أقوى من جيش التتار في العدد ولا في العتاد، لكنهم كانوا مسلمين بحق مسلحين بتقوى الله فاستطاعوا بعون الله أن ينقذوا الأمة من الهلاك المحتم. [20] [21]

لذلك يا صغيري يجب أن تعلم أنه مهما ضاقت الأمور فيومًا ما سيرسل الله من عباده الصالحين من يُرجع لهذه الأمة كرامتها ويزيل كل هذا الظلم.. فاجعل من تلك الحكاية واعظًا لك واجعل من الأبطال أمثال الشيخ العز بن عبد السلام وسيف الإسلام قطز قدوة لك. خذ بالأسباب لكن لا ترتكن إليها فالله مالك الكون وهو يصرفه كيف يشاء وهو وعد عباده الصالحين بالنصر المبين على أعداء الحق.. فلا تشغل بالك بمتي سيأتي النصر، ولكن اشغل بالك بأن تكون واحدًا من هؤلاء العباد الصالحين الذين يصطفيهم الله لحمل راية الحق.  خذ بالأسباب لكن اعلم أن الله هو من سيأتي بالنصر من عنده في الوقت الذي يختار وأن أخذك بالأسباب ليس إلا لأن الله أمرك أن تأخذ بالأسباب، وأنه مهما قوي الباطل وعز فإن الله أقوى وأعز .

هل فهمت يا عز الدين؟ عز الدين.. عز الدين.

كان عز الدين قد غلبه النعاس منذ لحظات.. ابتسمت صمود ابتسامة حنون وحملت رأسه برفق من على حجرها

ووضعتها على الوسادة. قبلته برقة على جبينه وقالت له بصوت خفيض: أحلام سعيدة يا صغيري.. تصبح على خير، وغدًا يبزغ نور الحق بإذن الله .

**انتهت بفضل الله..... نستودعكم الله**

# المصادر

[1] م. كوبلاند in *لعبة الأمم*, بيروت, مكتبة الزيتونة, 1970, p. 83.

[2] م. كوبلاند in *لعبة الأمم*, بيروت, مكتبة الزيتونة, 1970, p. 91.

[3] م. كوبلاند, لعبة الأمم, بيروت: مكتبة الزيتونة, 1970 .

[4] م. نجيب, كنت رئيسا لمصر, القاهرة: المكتب المصري الحديث, 1984 .

[5] ج. بركنز, الاغتيال الاقتصادي للأمم, القاهرة: مكتبة الأسرة, 2012 .

[6] ن. كلاين, عقيدة الصدمة, بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر, 2011 .

[7] ل. نابوليني, "الإتجار بالنساء in "*الاقتصاد العالمي الخفي* ,بيروت, الدار العربية للعلوم ناشرون, 2010. pp. 25-26 ,

[8] غ. لوبون, سيكولوجية الجماهير, بيروت: دار الساقي, 1991 .

[9] م. عبدالعظيم, "ظواهر الشعوذة والدجل والمعالجة بالقرآن," المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية, القاهرة, 2003.

[10] أ. أمين, قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية, القاهرة: دار الشروق, 2010 .

[11] Gordon, "Six Jewish Companies Control 96% of the World’s Media," The Tap Blog, 17 اكتوبر 2015. [Online]. Available: http://tapnewswire.com. [Accessed 27 يناير 2017].

[12] س. بايكر, الرقميون, بيروت: شركة المطبوعات, 2011 .

[13] ع. ع. بيجوفيتش, in *الإسلام بين الشرق والغرب* ,
القاهرة, دار الشروق, 2010.242-241 .pp ,

[14] S. Courtois, The Black Book of Communism, الولايات المتحدة الأمريكية: جامعة هارفارد, 1999 .

[15] J. Donnelly, "The Irish Famine," BBC, 17 2 2011. [Online]. Available: http://www.bbc.co.uk. [Accessed 5 2 2017].

[16] World Heritage Encyclopedia, "GREAT BENGAL FAMINE OF 1770," World Puplic Library, [Online]. Available: http://www.worldlibrary.org. [Accessed 5 2 2017].

[17] p. C.predue, "the first opium war," [Online]. Available: https://ocw.mit.edu. [Accessed 5 2 2017].

[18] س. كنزر, العودة إلى الصفر, بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر, 2012 .

[19] ن. تشوميسكي, السيطرة على الإعلام, القاهرة: مكتبة الشروق الدولية, 2003 .

[20] ر. السرجامي, "سقوط بغداد," قصة الإسلام, 22 ديسمبر 2010. [Online]. Available: http://islamstory.com. [Accessed 13 فبراير 2017].

[21] م. الأنصاري, "نص الرسالة التي أرسلها هولاكو قائد التتار إلى قطز," قصة الإسلام. [Online], Available: http://lite.islamstory.com/. [Accessed 13 فبراير 2017].

## المحتوى


بداية.......................................................... 4

الجمعة الرابعة .......................................................... 19

القومية والحدود .......................................................... 22

المنظمات الراعية للنظام العالمي.......................................................... 33

خداع الجماهير والسيطرة على العقول .......................................................... 46

الخرافة.......................................................... 58

الحضارة في مقابل الثقافة.......................................................... 71

الجمعة الخامسة.......................................................... 82

الإعلام.......................................................... 85

الإنترنت.. لقد صاروا يعرفون عنا كل شيء.......................................................... 103

العلمانية.......................................................... 115

الأمسية.. الشيوعية في مقابل الرأسمالية.......................................................... 138

عيد زواج نضال وصمود.......................................................... 179

الجمعة السادسة............................................................................ 194
أنظمة الحكم ونظام الحكم في الإسلام................................................... 195
نظام الحكم الملكي....................................................................195
نظام الحكم الثيوقراطي...............................................................206
نظام الحكم الشمولي.................................................................212
النظام الديمقراطي....................................................................213
حكاية ما قبل النوم....................................................................224
المصادر.................................................................................. 238